

تفسير سورة البقرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

في مسند أحمد وصحيح مسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، فإن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان».

﴿الْعَمَّ﴾

هي ما استأثر الله بعلمه، أو هي أسماء السور، أو من أسماء الله تعالى، أو ذكرت بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها. ومن زعم أنها دالة على معرفة المُدَد، وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم فقد ادعى ما ليس له. وطار في غير مطاره.

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

هذا الكتاب هو القرآن لا شك فيه أنه نزل من عند الله، نوراً للذين يتقون الشرك بالله، ويعملون بطاعته. ومن قال: إن المراد بـ «ذلك الكتاب» الإشارة إلى التوراة والإنجيل فقد أبعد النجعة، وأغرق في النزاع، وتكلف ما لا علم له به. والريب: الشك، وقد يستعمل في التهمة. ويطلق الهدى ويراد به ما يقر في القلب من الإيمان، وهذا لا يقدر على خلقه في قلوب العباد إلا الله تعالى، ويطلق ويراد به بيان الحق وتوضيحه والدلالة عليه، والإرشاد إليه.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾

أما الإيمان في اللغة فيطلق على التصديق المحض، وكذلك إذا استعمل مقروناً مع الأعمال، فأما إذا استعمل مطلقاً فالإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً وقولاً وعملاً، وأنه يزيد وينقص. وأما الغيب فما غاب عن العباد من أمر الجنة والنار وما ذكر في القرآن. وإقامة الصلاة إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والإقبال عليها فيها والمحافظة على مواقيتها ووضوئها. وأصل الصلاة في كلام العرب الدعاء. والمراد من النفقة هنا زكاة المال، أو تشمل النفقة الواجبة على الأهل وغيرهم.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾

أي يصدقون بما جئت به من الله، وما جاء به من قبلك من المرسلين، لا يفرقون بينهم، ولا

يجحدون ما جاؤوا به من ربهم، وبالأخرة هم يوقنون، أي بالبعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان. وإنما سميت الآخرة لأنها بعد الدنيا.

﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾.

المتصفون بما تقدم من الإيمان بالغيب، وإقام الصلاة، والإنفاق من الذي رزقهم الله، والإيمان بما أنزل إلى الرسول، ومن قبله من الرسل، والإيقان بالدار الآخرة هم على نور وبيان وبصيرة من الله تعالى، وهم المنجون المدركون ما طلبوا عند الله بأعمالهم وإيمانهم بالله وكتبه ورسله من الفوز بالثواب، والخلود في الجنات، والنجاة مما أعد الله لأعدائه من العقاب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾.

إن الذين غطوا الحق وستروه - وقد كتب الله عليهم ذلك - سواء عليهم إنذارك وعدمه، فإنهم لا يؤمنون بما جنتهم به. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ بَرُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: 96، 97]. «لا يؤمنون» جملة مؤكدة، ويحتمل أن تكون خبراً.

﴿حَتَّمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

استحوذ عليهم الشيطان إذ أطاعوه، فحتم الله على قلوبهم، وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة، فهم لا يبصرون هدى، ولا يسمعون، ولا يفقهون، ولا يعقلون. والوقف التام على قوله سبحانه: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ وقوله: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً﴾ جملة تامة، فإنه الطبع يكون على القلب وعلى السمع، والغشاوة - وهي الغطاء - يكون على البصر.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾.

يعني المنافقين من الأوس والخزرج، ومن كان على أمرهم، يقولون ذلك قولاً، ليس وراءه شيء آخر، فهم بإظهار ما أظهره من الإيمان مع إسرارهم الكفر يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله بذلك، وأن ذلك نافعهم عنده، وأنه يروج عليه كما قد يروج على بعض المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم عَلَىٰ شَيْءٍ عَدُوٌّ﴾ [المجادلة: 18]. والنفاق هو إظهار الخير وإسرار الشر. وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية، لأن مكة لم يكن فيها نفاق.

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾.

في قلوبهم شك ونفاق، فزادهم الله شكاً ونفاقاً، وأشهر المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ

وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

وإذا قيل لهم: لا تعصوا في الأرض قالوا إنما نحن على الهدى مصلحون، وكان فسادهم معصية الله لأن من عصى الله في الأرض، أو أمر بمعصيته فقد أفسد في الأرض، لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة. ألا إن هذا الذي يعتمدونه ويزعمونه أنه إصلاح وهو عين الفساد، ولكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فساداً.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ .

وإذا قيل للمنافقين آمنوا كإيمان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: أنصير نحن وهؤلاء بمنزلة واحدة، وعلى طريقة واحدة، وهم سفهاء، فأكد سبحانه وحصر السفاهة فيهم، ولكن من تمام جهلهم أنهم لا يعلمونه بإيمانهم في الضلالة والجهل. وذلك أردى لهم وأبلغ في العمى، والبعد عن الهدى. والسفيه: هو الجاهل الضعيف الرأي، القليل المعرفة بمواضيع المصالح والمضار.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ .

وإذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين أظهروا لهم الإيمان والموالة والمصافاة غروراً منهم للمؤمنين، ونفاقاً ومصانعة وتقية، وليشركوهم فيما أصابوا من خير ومغنم، وإذا خلصوا إلى رؤسائهم من أبحار اليهود ورؤوس المشركين والمنافقين قالوا إنا على مثل ما أنتم عليه، إنما نستهزيء بالقوم ونلعب بهم، فالله مجازيهم جزاء الاستهزاء ومعاقبهم عقوبة الخداع، فإن الله لا يكون منه المكر ولا الهزاء، والمعنى أن المكر والهزاء حاق بهم والعمه: الضلال، فهم في كفرهم الذي غمرهم ذله، وعلاهم رجسه يترددون حيارى ضلالاً، لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتِ بِحَدْرَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾ .

أولئك الذين أخذوا الضلالة وتركوا الهدى، فما ربحت صفقتهم في هذه البيعة، وما كانوا راشدين، إذ خرجوا من الهدى إلى الضلالة، ومن الجماعة إلى الفرقة، ومن الأمن إلى الخوف، ومن السنة إلى البدعة.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ضُمُّ بِكُمْ عَمَىٰ فَهُمْ لَّا يَرَجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ .

شبههم الله في اشترائهم الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى بمن استوفد ناراً، فلما أضاءت ما حوله، وأبصر بها ما عن يمينه وشماله، وتأنس بها إذ طفت ناره وصار في ظلام شديد، لا يبصر ولا يهتدي، وهو مع هذا أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق أعمى لو كان ضياءً لما أبصر،

فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى، واستحبابهم الغي على الرشد. وقد التفت في أثناء المثل من الواحد إلى الجمع. وقوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أي ذهب عنهم بما ينفعهم، وهو النور. وأبقى لهم ما يضرهم وهو الإحراق والدخان.

﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِيءِ أَذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْرَافٌ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ سَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ .

هذا مثل آخر ضربه الله تعالى لضرب آخر من المنافقين، وهم قوم يظهر لهم الحق تارة، ويشكون تارة أخرى، فقلوبهم في حال ترددهم وكفرهم كمطر نزل من السماء في حال ظلمات، وهي الشكوك والكفر والنفاق، ورعد وهو ما يزعج القلوب من الخوف، فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفرع، ﴿وَبَرْقٌ﴾، وهو ما يلعب في قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين في بعض الأحيان من نور الإيمان، وهم يحذرون الموت من الصواعق، ولا يجدي عنهم حذرهم شيئاً، لأن الله محيط بقدرته، وهم تحت مشيئته وإرادته، والبرق يكاد يخطف أبصارهم لشدته وقوته في نفسه، وضعف بصائرهم، وعدم ثباتها للإيمان، وهم يعرفون الحق ويتكلمون به، فهم من قولهم على استقامة فإذا ارتكسوا منه إلى الكفر قاموا متحيرين، والله على إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير.

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ عِبْدُوا رَبِّكُمْ أَلَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ أَلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ .

شرح تبارك وتعالى في بيان وحدانية ألوهيته بأنه تعالى هو المنعم على عبيده بإخراجهم من العدم إلى الوجود، وإسباغهم عليهم النعم الظاهرة والباطنة بأن جعل لهم الأرض مهذاً كالفراش مقرر موطأة مثبتة بالرواسي الشامخات، والسماء بناء محفوظاً كالسقف، وأنزل لهم من السحاب ماء، فأخرج لهم من أنواع الزروع والثمار ما هو مشاهد رزقاً لهم ولأنعامهم، فهذا يستحق أن يعبد وحده، ولا يشرك به غيره.

﴿وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَكِن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ .

ثم شرع تعالى في تقرير النبوة بعد أن قرر أنه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [الصافات: 35] قائلاً: ﴿وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ أي فإن زعمتم أن القرآن من عند غير الله فعارضوه بمثل ما جاء به، واستعينوا على ذلك بمن

شتم من دون الله، فإنكم لا تستطيعون ذلك، وقد تحداهم في مكة والمدينة مرات عديدة، مع شدة عداوتهم له، وبغضهم لدينه، ومع هذا عجزوا عن ذلك، ولهذا قال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا النَّارَ...﴾ و﴿لَنْ﴾ لفي التأيد في المستقبل، أي ولن تفعلوا ذلك أبداً، وهذه معجزة أخرى لأنه يبين أن القرآن لا يعارض أبد الأبد، ودهر الدهرين. و﴿الْوُودِ﴾ ما يلقي في النار لإضرارها كالخطب. و﴿الْحِجَارَةَ﴾: هي هنا حجارة الكبريت العظيمة السوداء الصلبة المنتنة، وهي أشد الأحجار حرّاً إذا حميت. ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ الحجارة، أو النار.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُؤُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٥).

لما ذكر الله تعالى ما أعد له لأعدائه من الأشقياء الكافرين به وبرسله من العذاب والنكال عطف بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله الذين صدّقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة، وهذا معنى تسمية القرآن بالمثاني على أصح أقوال العلماء، وهو أن يذكر الإيمان ويتبعه بذكر الكفر، أو عكسه، أو حال السعداء، ثم الأشقياء، أو عكسه، وحاصله ذكر الشيء ومقابله، وأما ذكر الشيء ونظيره فذاك التشابه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾ فوصف الجنة بأنه تجري الأنهار من تحت أشجارها وغرفها، وأن ثمارها تشبه ثمار الدنيا أو يشبه بعضها بعضاً في الشكل وتختلف في الطعم والمرأى، وأنهم لهم فيها أزواج مطهرة من القدر والأذى، ومن الحيض والغائط والبول والنخام والبزاق والمني والولد، ومن المأثم، وأنهم مع هذا النعيم في مقام أمين من الموت والانقطاع، فهم في نعيم سرمدي أبدي على الدوام، وهذا هو تمام السعادة، والله المسؤول أن يحشرنا في زمرةهم، إنه جواد كريم بر رحيم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْتَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٦) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَالِفُونَ﴾ (٢٧).

قال المشركون: ما بال العنكبوت والذباب يذكران؟ فأنزل الله هذه الآية، فالبعوضة تحيا ما جاعت، فإذا سمنت ماتت، وكذلك هؤلاء الذين ضرب الله لهم هذا المثل إذا امتلأوا من الدنيا أخذهم الله عند ذلك. فالله سبحانه لا يستنكف، ولا يخشى أن يضرب مثلاً بأي شيء كان: صغيراً كان أو كبيراً. و﴿مَّا﴾ ههنا للتقليل. ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ في الصغر والحقارة، أو في الكبر. ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾ من المنافقين. ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ من المؤمنين. ﴿إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ هم أهل النفاق والكفر.

والفاسق هو الخارج عن الطاعة، تقول العرب: فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها، والفاسق يشمل الكافر والعاصي، ولكن فسق الكافر أشد وأفحش.

والعهد: هو وصية الله إلى خلقه، وأمره إياهم بما أمرهم من طاعته، ونبيه عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه وعلى لسان رسله، ونقضهم ذلك هو تركهم العمل به. وقوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ مَا مَرَّ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُؤْتَلَ﴾ قيل: المراد به صلة الأرحام والقربات، وقيل: المراد أعم من ذلك، فكل ما أمر الله بوصله وفعله، فقطعوه وتركوه. و ﴿الْخَيْرُونَ﴾ هم الناقصون أنفسهم حظوظهم - بمعصيتهم الله - من رحمته كما يخسر الرجل في تجارته.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١٨).

كيف تجحدون وجود الله أو تعبدون غيره معه وقد كنتم عدماً فأخرجكم إلى الوجود، ثم يميتكم فترجعون إلى القبور، ثم يعثكم يوم القيامة؟

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٩).

الاستواء هنا مضمن معنى القصد والإقبال. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي علمه محيط بجميع ما خلق.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢٠).

هذا إخبار من الله بامتثانه على بني آدم بتوحيه بذكرهم في الملائ الأعلى قبل إيجادهم. ﴿خَلِيفَةً﴾ قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل. ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ ليس هذا السؤال على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبني آدم، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك، فهم يقولون: يا ربنا، ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء؟ فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك أي نصلي لك، ولا يصدر منا شيء من الفساد في الأرض وسفك الدماء، فأجابهم الله بقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم، فإني سأجعل فيهم الأنبياء، وأرسل فيهم الرسل، ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون والعباد والزهاد، والأولياء والأبرار، والمقربون والعلماء العاملين والخاشعون والمحبون له تبارك وتعالى المتبعون رسله صلوات الله عليهم.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ

صَدِّقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَادُمُ اثْبَتُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَبْنَاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا بُدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ .

هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة بما اختصه من علم أسماء كل شيء دونهم، وهذا كان بعد سجودهم له. فعلمه اسم كل شيء، وجعل يسمي كل شيء باسمه، وعرضت عليه أمة أمة. . ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي لم أخلق خلقاً إلا كنتم أعلم منه. كان الذي أبدوه هو قولهم: «أجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء»، وكان الذي كتموا بينهم هو قولهم: «لن يخلق ربنا خلقاً إلا كنا أعلم منه وأكرم».

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ .

وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم، امتن بها على ذريته حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم. وهل إبليس من الملائكة أو من الجن؟ رأيان، لكل أدلته. وهل كان هذا السجود سجود تحية وسلام وإكرام لآدم، أم كان السجود لله، وآدم قبله فيه، رأيان، والأول أولى.

﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾ .

أباح الله الجنة لآدم يسكن منها حيث يشاء، ويأكل منها ما شاء رغداً أي هنيئاً واسعاً طيباً. وقد اختلف في الشجرة التي نهي آدم عن الأكل منها، هل هي الكرمة أو الحنطة، أو النخلة، أو التينة، والصواب أنها شجرة بعينها، ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين، إذ لا دليل من القرآن ولا من السنة على تعيينها. ﴿مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ أي قرار وأرزاق وآجال إلى وقت ومقدار معين، ثم تقوم القيامة.

﴿فَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ .

قيل: إن هذه الكلمات مفسرة بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّر تَغْفِرَ لَنَا وَتَرْحَمَنَا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23] وقيل: غير ذلك. ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ إنه يتوب على من تاب إليه وأتاب.

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ .

الهدى: الأنبياء والرسل، والبيئات والبيان، أو هو محمد ﷺ، أو القرآن، وهذان القولان صحيحان،

والأول أعم. ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾ فمن أقبل على ما أنزلت به الكتب، وأرسلت به الرسل ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم من أمور الدنيا.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٣٩).

أي مخلدون فيها، لا محيد لهم عنها ولا محيص. وفي الحديث: «أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن أقوام أصابتهم النار بخطاياهم فأماتهم إماتة حتى إذا صاروا فحمًا أذن في الشفاعة».

﴿يَبْنَئِي إِسْرَائِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ يَهْدِكُمْ وَإِنِّي

فَارْهَبُونَ﴾ (٤٠).

يقول الله أمراً بني إسرائيل بالدخول في الإسلام، ومتابعة محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام. ومهيجاً لهم بذكر أبيهم إسرائيل، وهو نبي الله يعقوب عليه السلام، وتقديره يا بني العبد الصالح المطيع لله، كونوا مثل أبيكم في متابعة الحق، كما تقول: يا ابن الكريم افعل كذا، يا ابن الشجاع بارز الأبطال، يا ابن العالم اطلب العلم. وإسرائيل: هو يعقوب. ونعمة الله التي أنعم بها عليهم أن فجر لهم الحجر، وأنزل عليهم المن والسلوى، ونجاهم من عبودية آل فرعون، وجعل منهم الأنبياء والرسل، وأنزل عليهم الكتب. وعهد الله الذي يجب عليهم الوفاء به تصديق النبي محمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه فيما جاء به، والعهد الذي أخذ سبحانه على نفسه أن يفي به هو وضع ما كان عليهم من الأصار والأغلال التي كانت في أعناقهم بذنوبهم، أو هو رضاه عنهم، وإدخالهم الجنة. ﴿فَارْهَبُونَ﴾ فاحشون.

﴿وَأَمِنُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ مَصَدَقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰئِكَ كَافِرِينَ﴾ (٤١) وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا

وَإِنِّي فَاتَّقُونَ﴾ (٤٢).

يقول الله: يا معشر أهل الكتاب آمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم، لأنهم يجدون محمداً مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل. ﴿وَلَا تَكُونُوا أُولَٰئِكَ كَافِرِينَ﴾ أول فريق كافر به، وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم. ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ولا تعاضوا عن الإيمان بآياتي وتصديق رسولي بالدنيا وشهواتها، فإنها قليلة فانية، والدنيا بحذاقها ثمن قليل.

﴿وَلَا تَلْسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٤٣).

نهاهم سبحانه عن الشيثين معاً: تليس الحق بالباطل، وكتماهم الحق وإظهارهم الباطل، وأمرهم بإظهار الحق والتصريح به، قال قتادة: ولا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام، وأنتم تعلمون أن دين الله الإسلام، وأن اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (١٣).

أمر أهل الكتاب أن يصلوا، وأن يؤتوا الزكاة إلى النبي ﷺ، وأن يركعوا مع الراكعين من أمة محمد ﷺ، ويقول: كونوا معهم ومنهم. والزكاة فريضة واجبة لا تنفع الأعمال إلا بها وبالصلاة.

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٤).

يقول تعالى: كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب - وأنتم تأمرون الناس بالبر، وهو جماع الخير - أن تنسوا أنفسكم فلا تأمرون بما تأمرون الناس به، وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب وتعلمون ما فيه على من قصر في أوامر الله، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما أنتم صانعون بأنفسكم، فتنبهوا من رقتكم، وتبصروا من عمائتكم.

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (١٥).

استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض والصلاة، والصبر صبران: صبر عند المصيبة حسن، وأحسن منه الصبر عن محارم الله، وقيل: الصبر الصوم، وفي الحديث: «الصوم نصف الصبر»، والصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر. وعن حذيفة «كان رسول الله ﷺ إذا حز به أمر صلى». ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ وإن الصلاة لثقيلة ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ الخائفين، أو الخاضعين لطاعته، الخائفين سطوته، المصدقين بوعدده ووعيده.

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (١٦).

هذا من تمام الكلام الذي قبله، أي أن الصلاة لثقيلة إلا على الذين يعلمون أنهم محشورون إلى الله يوم القيامة، معروضون عليه، وأن أمورهم راجعة إلى مشيئته، يحكم فيها ما يشاء بعدله.

﴿يَبْنَیْ إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (١٧).

يذكرهم الله تعالى بسالف نعمه على آبائهم وأسلافهم، وما كان فضلهم به من إرسال الرسل منهم، وإنزال الكتب عليهم وعلى سائر الأمم من أهل زمانهم كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آخَرْنَا نَبِيَّكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٣٢) [الدخان: 32] وتفضيلهم هو بما أعطوا من الملك والرسل والكتب على عالم من كان في ذلك الزمان، فإن لكل زمان عالماً.

﴿وَأَنْتُمْ يَوْمًا لَا تَجْرِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ

يُنصَرُونَ﴾ (١٨).

لما ذكرهم الله تعالى بنعمه أولاً عطف على ذلك التحذير من طول نقمه بهم يوم القيامة، فإنه لا يغني فيه أحد عن أحد كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يُزِدُ وَازِرَةً وَرَدَّ أُخْرَى﴾ [الأنعام: 164] ولا يقبل فيه شفاعة من الكافرين، كما قال سبحانه ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: 48] ولا يؤخذ من نفس فيه فداء،

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يُبْعَلَّ مِنْ أَحَدِهِمْ مِثْلُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ أَفْتَدَىٰ بِدِيَارِهِ﴾ [آل عمران: 91] ولا أحد يغضب للكافرين فينصرهم، وينقذهم من عذاب الله، كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: 10].

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا لَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُم سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

﴿يَسُومُونَكُم﴾: يولونكم، أو يديمون عذابكم. و﴿فِرْعَوْنَ﴾ علم على كل من ملك مصر كافراً من العماليق وغيرهم، والبلاء هنا النعمة، قال ابن جرير: وفي الذي فعلنا بكم من إنجاننا آباءكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون بلاء لكم من ربكم عظيم، أي نعمة عظيمة عليكم في ذلك.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَجْنَحْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾.

بعد أن خلصناكم من آل فرعون، وخرجتم مع موسى خراج فرعون في طلبكم، ففرقنا بكم البحر وخلصناكم منهم، وحجزنا بينكم وبينهم، وأغرقناهم، وأنتم تنظرون ليكون ذلك أشفى لصدوركم، وأبلغ في إهانة عدوكم.

﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ ثم عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾.

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في عفوي فيكم لما عبدتم العجل بعد ذهاب موسى لميقات ربه عند انقضاء أمد المواعدة، وكانت أربعين يوماً، ونعمتي عليكم إذ آتيت موسى التوراة، والفرقان، وهو ما يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلالة، لعلكم تهتدون، وكان ذلك بعد خروجهم من البحر.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَلْقَوْتُمْ أَوْسَادَ الْفِرْعَوْنِ أَنْتُمْ ظَالِمَةٌ لِّأَنْفُسِكُمْ فَاتَّخَذْتُمْ الْعِجْلَ فِتْوَىٰ إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

هذه صفة توبته تعالى على بني إسرائيل من عبادة العجل. ﴿إِلَىٰ بَارِيكُمْ﴾ إلى خالقكم، أي فتوبوا إلى الذي خلقكم وقد عبدتم معه غيره. وتوبتهم أن يقتل كل واحد منهم من لقي من والد وولد، فيقتله بالسيف ولا يبالي من قتل، فغفر الله للقاتل والمقتول.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ إِلَهُ جَهَنَّمَ فَاخِذْتُمْ أَصْعَافَهُ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ ثم بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾.

يقول تعالى: ﴿واذكروا نعمتي عليكم﴾ في بعثي لكم بعد الصعق إذ سألتم رؤيتي جهرة عياناً بما لا يستطيع لكم، ولأمثالكم ﴿جَهَنَّمَ﴾: علانية. عن الربيع: هم السبعون الذين اختارهم موسى

فساروا معه، قال: فسمعوا كلاماً، فقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ قال: فسمعوا صوتاً فصعقوا، أو الصاعقة: ضجة من السماء، أو نار. ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ صُعِقَ بعضهم، وبعض ينظرون، ثم بعث هؤلاء، وصُعِقَ هؤلاء، ثم بعثوا من بعد الموت ليستوفوا آجالهم بعد أن بكى موسى، ودعا الله وقال: ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم؟ ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِّن قَبْلُ وَإِنِّي﴾ [الأعراف: 155] وقيل: لما رجع موسى من عند ربه بالألواح قد كتب فيها التوراة فوجدهم يعبدون العجل: فأمرهم بقتل أنفسهم ففعلوا فتاب الله عليهم، فقال: إن هذه الألواح فيها كتاب الله، فيه أمركم الذي أمركم به، ونهيكم الذي نهاكم عنه، فقالوا: ومن يأخذه بقولك أنت؟ لا والله حتى نرى الله جهرة، حتى يطلع الله علينا، فيقول: هذا كتابي فخذوه، فما له لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسى، قال: فجاءت غضبة من الله فجاءتهم صاعقة بعد التوبة فصعقتهم فماتوا أجمعون، قال: ثم أحياهم من بعد موتهم، فقال لهم موسى: خذوا كتاب الله، فقالوا: لا، فقال: أي شيء أصابكم؟ فقالوا: أصابنا أننا متنا ثم أحيينا، قال: خذوا كتاب الله، قالوا: لا، فبعث الله ملائكة، ففتت الجبل فوقهم.

﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰنَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٥٧).

لما ذكر الله ما دفعه عنهم من النقم شرع يذكرهم بما أسبغ عليهم من النعم. ﴿الْغَمَامَ﴾ جمع غمامة سمي بذلك لأنه يغم السماء، أي يواربها ويسترها، وهو السحاب الأبيض، ظللوا به في التيه ليقبهم حر الشمس. والظاهر أن ﴿الْمَنَّٰنَ﴾ كل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك مما ليس لهم فيه عمل ولا كد. وقيل: كان المن ينزل عليهم على الأشجار فيفدون إليه فيأكلون منه ما شاؤوا. ﴿وَالسَّلْوَىٰ﴾ طائر يشبه السمانى. ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أمر بإباحة وإرشاد وامتنان. ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فخالفوا وكفروا فظلموا أنفسهم، هذا مع ما شاهدوه من الآيات البيّنات والمعجزات القاطعات، وخوارق العادات.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا أَبْنَابَ سُجْدًا وَّقُولُوا حِطَّةٌ نَّمَّزْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَزَيْدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٨) ﴿بَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ يَمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (٥٩).

يقول تعالى لائماً لهم على نكولهم عن الجهاد ودخولهم الأرض المقدسة لما قدموا من بلاد مصر صحبة موسى ﷺ، فأمروا بدخول الأرض المقدسة وقاتل من فيها من العماليق الكفرة فنكلوا عن قتالهم وضعفوا واستحسروا فرماهم الله في التيه عقوبة لهم: وأصح القولين أن هذه البلدة هي بيت المقدس، وقيل: هي أريحاء. ﴿سُجْدًا﴾ أي ركعاً. ﴿حِطَّةٌ﴾ مغفرة، استغفروا. فدخلوا يزحفون

على أستاذهم، فبدلوا وقالوا: حبة في شعرة. ﴿يَجْزَأَ﴾ عن ابن عباس: كل شيء في كتاب الله من الرجز يعني به العذاب.

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُتُوبًا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ﴿١٦﴾ .

يقول تعالى: ﴿واذكروا نعمتي عليكم﴾ في إجابتي لبيكم موسى ﷺ حين استسقاني لكم، وتيسيري لكم الماء، وإخراجه لكم من حجر يحمل معكم، وتفجيري الماء لكم منه من اثني عشرة عيناً، لكل سبط من أسباطكم عين، قد عرفوها، فكلوا من المن والسلوى، واشربوا من هذا الماء الذي أنبعته لكم بلا سعي منكم ولا كد، وابدوا الذي سخر لكم ذلك، ولا تقابلوا النعم بالعصيان فتسلبوها. ﴿الْحَجَرُ﴾ هو حجر بعينه كان يحمله موسى، فتكون اللام للعهد، وعن الحسن: لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه، قال: وهذا أظهر في المعجزة، وأبين في القدرة، فكان يضرب الحجر بعصاه فينفجر، ثم يضربه فييس.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَجَدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْمِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَاطِهَا وَفُؤُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَسْتَبْدِلُوكَ الَّذِي هُوَ أَدْفٌ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْطَلُوا مِضْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبِ رَبِّكَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ ﴿١٧﴾ .

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في إنزالي عليكم المن والسلوى طعاماً طيباً نافعاً هنيئاً سهلاً، واذكروا ضجركم مما رزقناكم، وسؤالكم موسى استبدال ذلك بالأطعمة الدنيئة من البقول ونحوها مما سألتهم، قال الحسن البصري: فبطروا ذلك، فلم يصبروا عليه، وذكروا عيشهم الذي كانوا فيه، وكانوا قوماً أهل أعداس وبصل وبقل وثوم. ﴿عَلَىٰ طَعَامٍ وَجِدٍ﴾ إنما سمي واحداً وهم يأكلون المن والسلوى، لأنه لا يتبدل ولا يتغير كل يوم، فهو مأكّل واحد. ﴿وَفُؤُومِهَا﴾ هو الثوم، أو هو الحنطة. ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ أي وضعت عليهم والزموا بها شرعاً وقدرأ، أي لا يزالون مستذلين، من وجدهم استذلهم، وأهانهم، وضرب عليهم الصغار، وهم مع ذلك في أنفسهم أذلاء مستكينون. ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبِ رَبِّكَ﴾ وجعلوا متصرفين متحملين غضب الله. والعصيان: فعل المناهي، والاعتداء المجاوزة في حد المأذون فيه، والمأمور به.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالصَّالِحِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿١٧﴾ .

لما بين الله تعالى حال من خالف أو امره، وارتكب زواجه، وتعدى في فعل ما لا إذن فيه، وانتهك المحارم، وما أحل بهم من النكال نبه تعالى على من أحسن من الأمم السالفة وأطاع فإن له جزاء الحسنی، وكذلك الأمر إلى قيام الساعة، كل من اتبع الرسول النبي الأمي فله السعادة الأبدية، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه، ولا هم يحزنون على ما يتركونه ويخلفونه. واليهود من الهوادة وهي المودة، أو التهود، وهي التوبة ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: 156] أي تبنا، فكأنهم سموا بذلك لتوبتهم ومودتهم في بعضهم لبعض. ﴿وَالنَّصَارَى﴾ سموا بذلك لتناصرهم فيما بينهم، وقد يقال لهم أنصاراً أيضاً كما قال عيسى عليه السلام: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِزْمِيُّ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 52] والنصارى جمع نصران كمشاوى جمع نشوان، وسكاري جمع سكران، ويقال للمرأة: نصرانة. ﴿وَالصَّابِغِينَ﴾ هم قوم بين المجوس واليهود والنصارى، ليس لهم دين، أو هم فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور، أو هم يعبدون الملائكة. ولما بعث الله محمداً ﷺ خاتماً للنبيين ورسولاً إلى بني آدم على الإطلاق وجب على الناس جميعاً تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر والانكفاف عما عنه زجر، وهؤلاء هم المؤمنون حقاً.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٣)

يقول الله تعالى مذكراً بني إسرائيل ما أخذه عليهم من العهود والمواثيق بالإيمان به وحده لا شريك له واتباع رسله، وأخبر أنه لما أخذ الميثاق رفع الجبل فوق رؤوسهم ليقروا بما عاهدوا عليه، ويأخذوه بقوة وجزم وامثال. ﴿الطُّورَ﴾ هو الجبل، كما فسره به في الأعراف: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ [الأعراف: 171] وقوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ أي خذوا لتوراة واعملوا بما فيها. وقوله تعالى ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ أي اقرؤوا ما في التوراة واعملوا به.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (١٤).
ثم بعد هذا الميثاق المؤكد العظيم توليتم عنه وانشيتم ونقضتموه ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ أي بتوبته عليكم، وإرساله النبيين والمرسلين إليكم ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ بنقضكم ذلك الميثاق في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (١٥).
يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ يا معشر اليهود ما حل من البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله، وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره إذ كان مشروعاً لهم، فتحيلوا على اصطياد الحيتان في يوم السبت بما وضعوا لها من الشصوص والحبال والبرك قبل يوم السبت، فلما جاءت يوم السبت على عاداتها في الكثرة نشبت بتلك الحبال والحيل، فلم

تخلص منها يومها ذلك، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت، فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة القردة وهي أشبه شيء بالأناس في الشكل الظاهر، وليست بإنسان حقيقة، وكذلك أعمال هؤلاء، وحيلتهم لما كانت مشابهة للحق في الظاهر ومخالفة له في الباطن كان جزاؤهم من جنس عملهم.

﴿جَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾ .

يقول تعالى: فجعلنا العقوبة التي حلت بهذه القرية وأهلها عبرة لما حولها من القرى ليعتبر من في زمانهم، ولتكون موعظة لمن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة. وفي الحديث: «لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل».

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَنَتَّخِذُنَا هُزُورًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَن أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ .

يقول الله تعالى: واذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم في خرق العادة لكم في شأن البقرة، وبيان القاتل من هو بسببها؟ وإحياء المقتول، ونصه على من قتله منهم.

﴿قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَائٍ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ .

أخبر تعالى عن تعنت بني إسرائيل وكثرة سؤالهم لرسولهم، ولهذا لما ضيقوا على أنفسهم. ضيق الله عليهم، ولو ذبحوا أي بقرة لوقعت الموضع عنهم، ولكنهم شددوا فشدد عليهم. ﴿مَا هِيَ﴾ أي ما هذه البقرة، وما هي صفتها؟ ﴿لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ﴾ أي لا كبيرة هرمة، ولا صغيرة لم يلحقها الفحل. ﴿عَوَائٍ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ يقول: نصف بين الكبيرة والصغيرة، وهي أقوى ما يكون من الدواب والبقر، وأحسن ما تكون.

﴿قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقْعُ لَوْنُهَا نَسْرُ النَّظِيرِ ﴿٦٩﴾﴾ .

﴿فَاقْعُ لَوْنُهَا﴾ قيل: تكاد تسود من صفرتها، وقيل: صافية اللون، وقيل: شديدة الصفرة، تكاد من صفرتها تبيض. ﴿نَسْرُ النَّظِيرِ﴾ أي تعجب الناظرين.

﴿قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقْرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ .

﴿إِنَّ الْبَقْرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا﴾ أي تشابه البقر علينا لكثرة، فميز لنا هذه البقرة وصفها وحلها لنا. وفي الحديث: «لولا أن بني إسرائيل قالوا ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ لما أعطوا ولكن استنوا».

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا لَنْ نَجِدَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ .

أي إنها ليست مذللة بالحرارة، ولا معدة للسقي في الساقية، بل هي مكرمة حسنة صبيحة مسلمة صحيحة لا عيب فيها ﴿شِيَةَ فِيهَا﴾ أي ليس فيها لون غير لونها.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَآذَرْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٦﴾﴾ .

﴿فَآذَرْتُمْ فِيهَا﴾ قال بعضهم: أنتم قتلتموه، وقال آخرون: بل أنتم قتلتموه. ﴿مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ ما كنتم تغيبون.

﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ .

﴿بِبَعْضِهَا﴾ هذا البعض أي شيء كان من أعضاء هذه البقرة فالمعجزة حاصلة به، وخرق العادة به كائن، ولم يجيء من طريق صحيح عن معصوم بيان هذا العضو فنحن نبهمه كما أهبه الله، ولو كان في تعيينه لنا فائدة، تعود علينا في أمر الدين أو الدنيا لبيته الله تعالى، ولكنه أهبه.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقُّ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا عَمِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ .

يقول تعالى توبيخاً لبني إسرائيل وتقريباً لهم على ما شاهدوه من آيات الله وإحيائه الموتى ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ فهي في قسوتها كالحجارة التي لا علاج للينها، أو أشد قسوة من الحجارة، فإن من الحجارة ما يتفجر منها العيون بالأنهار الجارية، ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء، وإن لم يكن جارية، ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله وفيه إدراك لذلك بحسبه كما قال سبحانه: ﴿تَشَقُّقُ لَهُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: 44].

وخلاصة قصة القتل والبقرة أنه كان رجل من بني إسرائيل عقيماً، لا يولد له، وكان له مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه فقتله، ثم حملة ليلاً فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض، فقال ذوو الرأي منهم والنهي؛ علام يقتل بعضكم بعضاً، وهذا رسول الله نبيكم، فأتوا موسى فذكروا له ذلك، فأمروا أن يذبحوا بقرة، ولو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة، ولكنهم شددوا فشدد عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها. فقال: والله لا أنقضها من ملء جلدها ذهباً، فأخذوها بملء جلدها ذهباً، فذبوها فضربوه ببعضها، فقام فقالوا: من قتلك، فقال: هذا - لابن أخيه -، ثم مال ميتاً فلم يعط من ماله شيئاً.

﴿ أَنْظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٧٥).

يقول تعالى: ﴿ أَنْظَمُونَ ﴾ أيها المؤمنون أن ينقاد لكم بالطاعة هؤلاء الفرقة الضالة من اليهود الذين شاهد آباؤهم من الآيات البينات ما شاهدوه، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك، وتأولوا كلام الله على تأويله من بعد ما فهموه على الجلية، ومع ذلك يخالفونه على بصيرة، وهم يعلمون أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله.

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُوبِهِمْ إِلَىٰ بَعْضِ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٧٦).

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا ﴾ أن صاحبكم رسول الله، ولكنه إليكم خاصة ﴿ وَإِذَا خَلَا بِعَضُوبِهِمْ إِلَىٰ بَعْضِ قَالُوا ﴾: لا تحدثوا العرب بهذا، فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم، فكان منهم، وأنتم تقرون بأنه نبي، وقد علمتم أنه أخذله الميثاق عليكم باتباعه، وأنه النبي الذي كنتم تنتظرون، وتجدون في كتابكم.

﴿ أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوكَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ (٧٧).

قال أبو العالية: يعني ما أسروا من كفرهم بمحمد ﷺ، وتكذبيهم به، وهم يجدونه مكتوباً عندهم.

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (٧٨).

يقول تعالى: ومن أهل الكتاب من لا يحسنون الكتابة، فلا يدرون من التوراة إلا ظنوناً ليست في كتاب الله، أو إلا أمانى يتمنونها، فهم لا يفقهون من الكتاب الذي أنزله الله على موسى شيئاً، ولكنهم يتخرصون الكذب، ويتخرصون الأباطيل كذباً وزوراً.

﴿ أُمِّيُونَ ﴾ جمع أمي، وهو من لا يحسن الكتابة.

﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَسْتَرُوا بِهِ ثُمَّ نَأْتُوا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (٧٩).

هؤلاء صنف آخر من اليهود، وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله، وأكل أموال الناس بالباطل، فقد حرفوا التوراة وزادوا فيها ما أحبوا ومحووا منها ما يكرهون، ومحووا اسم محمد ﷺ من التوراة. والويل: جبل من النار.

﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَنْتِئَامًا مَّعْدُودَةً فَلْأَخَذْتُمُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۗ أَمْ نَقُولُونَ عَلَىٰ اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴾ (٨٠).

يقول الله تعالى إخبار عن اليهود فيما نقلوه وادعوه لأنفسهم من أنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة ثم ينجون منها، فرد الله عليهم ذلك بأنه إن وقع عهد فهو لا يخلف عهده، ولكنه لم يكن عهد، واليهود يتقولون على الله الكذب والافتراء. ﴿إِلَّا أَنْتُمْ مَقْدُونَةٌ﴾ إلا أربعين ليلة، وهي مدة عبادتهم العجل.

﴿بِكُلِّ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَظَّتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾.

يقول تعالى: ليس الأمر كما تمنيتم ولا كما تشتهون، بل الأمر أنه من عمل سيئة وأحاطت به خطيئته، وهو من وافى يوم القيامة وليست له حسنة، بل جميع أعماله سيئات فهذا من أهل النار. والذين آمنوا بالله ورسوله، وعملوا الصالحات من العمل الموافق للشريعة فهم من أهل الجنة. وفي الحديث: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه».

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَاتُّبِعْتُمْ مَعْرُضُونَ﴾ (٨٣).

يُذكر تبارك وتعالى بني إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر وأخذه ميثاقهم على ذلك، وأنهم تولوا عن ذلك كله، وأعرضوا قصداً وعمداً، وهم يعرفونه ويذكرونه، فأمرهم تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وبهذا أمر جميع خلقه، ولذلك خلقهم، وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها وهو حق الله تبارك وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له، ثم بعده حق المخلوقين، وأكدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين، ولهذا يقرن تبارك وتعالى بين حقه وحق الوالدين كما قال تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: 14] وفي الصحيحين عن ابن مسعود قلت: يا رسول الله، أي العمل أفضل؟ قال: «الصلاة على وقتها» قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين» قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رجلاً قال: يا رسول الله، من أبر؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أباك» ثم أدناك، ثم أدناك» ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ وهم الصغار الذين لا كاسب لهم من الآباء ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم. ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أي كلموهم طيباً، ولينوا لهم جانباً، ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمعروف، ثم أكد الأمر بعبادته والإحسان إلى الناس بالمتعين من ذلك وهو الصلاة والزكاة فقال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ وأخبر أنهم تولوا عن ذلك كله أي تركوه وراء ظهورهم وأعرضوا عنه على عمد بعد العلم به إلا القليل منهم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ ثُمَّ أَقَرَّرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (٨٤)

يقول تبارك وتعالى منكرأ على اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ بالمدينة، وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج، وذلك أن الأوس والخزرج، وهم الأنصار، كانوا في الجاهلية عباد أصنام، وكانت بينهم حروب كثيرة، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل: بنو قينقاع، وبنو النضير حلفاء الخزرج، وبنو قريظة حلفاء الأوس، فكانت الحروب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه، فيقتل اليهودي أعداءه، وقد يقتل اليهودي الآخر من الفريق الآخر، وذلك حرام عليهم في دينهم، ونص كتابهم، ويخرجونهم من بيوتهم ويتهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفكوا الأسارى من الفريق المغلوب عملاً بحكم التوراة، والميثاق الذي أخذ الله عليهم أن لا يقتل بعضهم بعضاً، ولا يخرجهم من منزله ولا يظهر عليه، وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة ﴿ثُمَّ أَقَرَّرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أي ثم أقررتهم بمعرفة هذا الميثاق وصحته وأنتم تشهدون به.

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِينِهِمْ تَبْظَاهِرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِيمَةِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَقْتُلُوهُمْ وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ أَقْلِمُ يَوْمَئِذٍ أَلْفَيْكُمْ يَوْمَئِذٍ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٨٥)

كانت قريظة حلفاء الأوس، وكانت النضير حلفاء الخزرج فكانوا يقتلون في حرب بينهم فتقاتل بنو قريظة مع حلفائهم النضير وحلفاءهم. وكانت النضير تقاتل قريظة وحلفائهم ويغلبونهم فيخربون ديارهم ويخرجونهم منها، فإذا أسر رجل من الفريقين كلاهما جمعوا له حتى يفدوه فتعيرهم العرب بذلك ويقولون: كيف تقاتلونهم وتفدونهم؟ قالوا: إنا أمرنا أن نفديهم، وحرّم علينا قتالهم، قالوا فلم تقاتلونهم؟ قالوا: إنا نستحي أن تستذل حلفاؤنا فذلك حين غيرهم الله تبارك وتعالى. فقال تعالى:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٨٦)

أولئك الذين استحبوا الحياة الدنيا واختاروها على الآخرة، فلا يُخَفَّفُ عنهم العذاب ساعة واحدة وليس لهم ناصر ينقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدي، ولا يجيرهم منه أحد.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ

وَأَيَّدَنَّهُ بِرُوحِ الْقُدُّوسِ أَفَكَلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِمَّا لَا تُهَوِّى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ .

ينعت تبارك وتعالى بني إسرائيل بالعتو والعناد والمخالفة والاستكبار على الأنبياء، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم، فذكر تعالى أنه أتى موسى الكتاب، وهو التوراة، فحرفوها وبدلوها، وخالفوا أوامرها وبدلوها، وأرسل الرسل والنبیین من بعده الذين يحكمون بشريعته، حتى ختم أنبياء بني إسرائيل بعيسى ابن مريم، فجاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام، ولهذا أعطاه الله من البينات - وهي المعجزات - من إحياء الموتى، وخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله، وإبراء الأسقام، وإخباره بالغيوب، وتأيدته بروح القدس - وهو جبريل عليه السلام - ما يدلهم على صدقه فيما جاءهم به، فاشتد تكذيب بني إسرائيل له، وحسداهم وعنادهم لمخالفة التوراة في البعض كما قال تعالى إخباراً عن عيسى عليه السلام ﴿وَلَأُحِضِّدَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: 50] فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء أسوأ المعاملة، ففريقاً يكذبونه، وفريقاً يقتلونه، وما ذاك إلا لأنهم يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم، وآرائهم، وبالإلزام بأحكام التوراة التي قد تصرفوا في مخالفتها، فلماذا كان ذلك يشق عليهم، فكذبوهم، وربما قتلوا بعضهم. وإنما قال سبحانه: ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ ولم يقل: وفريقاً قتلتم، لأنه أراد بذلك وصفهم في المستقبل أيضاً، لأنهم حاولوا قتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالسم والسحر، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم في مرض موته: «ما زالت أكلة خبير تعاودني، فهذا أوان انقطاع أبهري».

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٨٨﴾ .

﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي في أكنة، فلا تفقه ولا تعي، أو قلوبنا أوعية لكل علم فلا تحتاج إلى علمك. ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ قليل من يؤمن منهم، أو قليل إيمانهم. وقال بعضهم: إنما كانوا غير مؤمنين بشيء، وإنما قال: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ وهم بالجميع كافرون، كما تقول العرب: «قلما رأيت مثل هذا قط» وقال الكسائي: تقول العرب: «من زنى بأرض قلما تنبت» أي لا تنبت شيئاً.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا بِهِ فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٨٩﴾ .

يقول تعالى: ولما جاء اليهود كتاب من عند الله - وهو القرآن الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم - مصدق للتوراة التي معهم، وكانوا قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم، يقولون: إنه سيبعث نبي في آخر الزمان، نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم من قريش كفروا به. فقال لهم معاذ بن جبل، وبشر بن البراء بن معرور، وداود بن مسلمة: يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، ونحن

واليد، وقلق البحر، وتظليلهم بالغمام، والمن والسلوى، والحجر، وغير ذلك من الآيات التي شاهدوها. ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد ما ذهب إلى الطور.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ .

يعدد سبحانه وتعالى عليهم خطأهم ومخالفتهم للميثاق، وعتوهم وإعراضهم عنه حتى رفع الطور عليهم حتى قبلوه، ثم خالفوه، وأشربوا حب العجل حتى خلص ذلك إلى قلوبهم وفي الحديث: «حبك الشيء يعمي ويصم» قل: بسما تعتمدونه في قديم الدهر وحديثه من كفركم بآيات الله ومخالفتكم الأنبياء، ثم اعتمادكم في كفركم بمحمد ﷺ، وهذا أكبر ذنوبكم، وأشد الأمور عليكم، إذ كفرتم بخاتم الرسل، وسيد الأنبياء والمرسلين، المبعوث إلى الناس أجمعين، فكيف تدعون لأنفسكم الإيمان وقد فعلتم هذه الأفعال القبيحة من نقضكم المواثيق، وكفركم بآيات الله، وعبادتكم العجل من دون الله.

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾ .

أي أدعوا بالموت على أي الفريقين أكذب، فأبوا ذلك على رسول الله ﷺ.

﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾ .

ولو تمنوه يوم قال لهم ما بقي على الأرض يهودي إلا مات، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً».

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ .

ولتجدنهم أحرص الناس على طول العمر لما يعلمون من مآلهم السيئ، وعاقبتهم عند الله الخاسرة، لأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم، وما يحاذرون منه واقع بهم لا محالة، حتى وهم أحرص من المشركين الذين لا كتاب لهم، فلو استطاع أحدهم أن يعيش في الدنيا ألف عام لفعل حتى يبعد عنه عذاب الله، ولكن عذاب الله واقع به، ولن ينجيه من العذاب أن يعيش أمداً طويلاً. والمشرك لا يرجو بعثاً بعد الموت فهو يحب طول الحياة، واليهودي لو عرف ما له في الآخرة من الخزي ما ضيع ما عنده من العلم.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾ .

أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بني إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم، وأن ميكائيل ولي لهم. وتفسير الآية أن من عادى جبرائيل فليعلم أنه الروح الأمين، الذي نزل بالذكر الحكيم، على قلبك من الله بإذنه له في ذلك، فهو رسول من رسل الله ملكي، ومن عادى رسولاً فقد عادى جميع الرسل، كما أن من آمن برسول فإنه يلزمه الإيمان بجميع الرسل، وكما أن من كفر برسول فإنه يلزمه الكفر بجميع الرسل، وفي الحديث «من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب» ولهذا غضب الله لجبرائيل على من عاداه. وقوله تعالى ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي من الكتب المتقدمة ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي هدى لقلوبهم، وبشرى لهم بالجنة، وليس ذلك إلا للمؤمنين.

﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ .

يقول الله تعالى: من عاداني وملائكتي ورسلي وجبريل وميكائيل ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ وفي الحديث «من عادى ولياً لله فقد عادى الله، ومن عادى الله فإن الله عدو له، ومن كان الله عدوه فقد خسر الدنيا والآخرة». وفي الحديث الآخر «إني لأثار لأوليائي كما يثار الليث في الحرب» وفي الحديث الصحيح «من كنت خصمه خصمته». ورسول الله تشمل رسله من الملائكة والبشر ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِمَّنَ النَّاسِ﴾ [الحج: 75].

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾ .

أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات دالات على نبوتك، وتلك الآيات هي ما طواه كتاب الله من خفايا علوم اليهود، وأخبار أوائلهم من بني إسرائيل والنبأ عما تضمنته كتبهم التي لم يعلمها إلا أبحارهم وعلمائهم، وما حرفه أوائلهم وأواخرهم، وبدلوه من أحكامهم التي كانت في التوراة، وكان من فطرة كل ذي فطرة صحيحة تصديق ما جاء به محمد ﷺ لأنه يخبرهم بما في أيديهم على وجهه وهو أومي لا يقرأ ولا يكتب، ومع ذلك قالوا له حسداً وغياً: ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية مبينة فتتبعك، وذلك ولا شك خروج عن دواعي الفطرة الصحيحة ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ .

﴿أَوْ كَلِمَاتٍ عَاهَدُوا عَاهِدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ .

﴿نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ أي نقضه. فالقوم ذمهم الله بنقضهم العهود التي تقدم الله إليهم بالتمسك بها، والقيام بحقها.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ بَدَّ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾ .

أي طرح طائفة منهم كتاب الله الذي بأيديهم مما فيه البشارة بمحمد ﷺ أي تركوها فإنهم لا يعلمون ما فيها، وأقبلوا على تعلم السحر واتباعه، ولهذا أرادوا كيداً برسول الله وسحروه، فأطلع الله نبيه على ذلك وشفاه منه .

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنٌ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَكَّرُوا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١١٢﴾﴾ .

واتبعت اليهود الذين أوتوا الكتاب من بعد إعراضهم عن كتاب الله الذي بأيديهم، ومخالفتهم لرسول الله محمد ﷺ ما ترويه وتجبر به وتحذثه الشياطين في ملك سليمان من السحر، وما كفر سليمان، وما أنزل الله السحر على الملكين، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت، لأن سحرة اليهود كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود، فأكذبهم الله بذلك، وأخبر نبيه محمداً ﷺ أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر، وبرأ سليمان ﷺ مما نحلوه من السحر، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين، وأنها تعلم الناس ذلك ببابل، وأن الذين يعلمونهم ذلك رجلان، اسم أحدهما هاروت، واسم الآخر ماروت، فإذا أتاهما الآتي يريد السحر نهيها أشد النهي، وقال له: إنما نحن فتنة فلا تكفر، فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر ما يتصرفون به فيما يتصرفون من الأفاعيل المذمومة ما إنهم ليفرقون به بين الزوجين مع ما بينهما من الخلطة والاتلاف، وهذا من صنيع الشياطين، وما هم بضارين به من أحد إلا بقضاء الله، فمن شاء الله سلطهم عليه، ومن لم يشأ لم يسلطهم عليه، ويتعلمون ما يضرهم في دينهم، وليس له نفع يوازي ضرره، ولقد علم اليهود الذين استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسول ﷺ لمن فعل فعلهم ذلك أنه ما له في الآخرة من نصيب، ولبئس البديل ما استبدلوا من السحر عوضاً عن الإيمان ومتابعة الرسول ﷺ لو كان لهم علم بما وعظوا به .

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَآتَقَوْا لِمَثُوبَةٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١١٣﴾﴾ .

ولو أنهم آمنوا بالله ورسله، واتقوا المحارم لكان مثوبة الله على ذلك خيراً لهم مما استخاروا لأنفسهم، ورضوا به ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾

تنبيه: تفصيل قصة هاروت وماروت راجع إلى أخبار بني إسرائيل إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطباب فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى، والله أعلم بحقيقة الحال.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا وَقُولُوا آنظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ .

نهى الله عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم، وذلك أن اليهود كانوا يعانون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص - عليهم لعائن الله - فإذا أرادوا أن يقولوا: اسمع لنا يقولوا: راعنا، ويورون بالرعونة. والغرض أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولاً وفعلاً.

﴿مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾﴾ .

يبين الله تعالى شدة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين الذين حذر الله من مشابهتهم للمؤمنين، ليقطع المودة بينهم وبينهم، ونبه تعالى على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل الذي شرعه لنبيه محمد ﷺ حيث يقول: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ .

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١٦﴾﴾ .

ما ننقل من حكم آية إلى غيره فببدله ونغيره، وذلك أن نحول الحلال حراماً، والحرام حلالاً، والمباح محظوراً، والمحظور مباحاً، ولا يكون ذلك إلا في الأمر والنهي والحظر والإطلاق، والمنع والإباحة، فأما الأخبار فلا يكون منها ناسخ ولا منسوخ، وأصل النسخ من نسخ الكتاب، وهو نقله من نسخة أخرى إلى غيرها، فكذاك معنى نسخ الحكم إلى غيره إنما هو تحويله، ونقل عبارة إلى غيرها، وسواء نسخ حكمها أو خطها، إذ هي في كلتا حالتها منسوخة فاندرج في ذلك نسخ الأخف بالأثقل، وعكسه، والنسخ لا إلى بدل.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٧﴾﴾ .

يرشد عباده تعالى بهذا إلى أنه المتصرف في خلقه بما يشاء، فله الخلق والأمر، وهو المتصرف، فكما خلقهم كما يشاء، يسعد من يشاء، ويشقى من يشاء، ويصح من يشاء، ويمرض من يشاء،

ويوفق من يشاء، ويخذل من يشاء، كذلك يحكم في عباده بما يشاء، فيحل ما يشاء، ويحرم ما يشاء، ويبيح ما يشاء، ويحظر ما يشاء، وهو الذي يحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ، فيأمر بالنسخ لما فيه من المصلحة التي يعلمها تعالى، ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى، فالطاعة كل الطاعة في امثال أمره، واتباع رسله في تصديق ما أخبروا، وامثال ما أمروا، وترك ما عنه زجروا، وفي هذا المقام رد عظيم، وبيان بليغ لكفر اليهود، وتزييف شبهتهم لعنهم الله في دعوى استحالة النسخ إما عقلاً كما زعمه بعضهم جهلاً وكفراً، وإما نقلاً كما تحرصه آخرون منهم افتراءً وإفكاً.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ۚ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (١٧٨).

نهى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية الكريمة عن كثرة سؤال النبي ﷺ عن الأشياء قبل كونها، والمراد أن الله ذم من سأل الرسول ﷺ عن شيء على وجه التعنت والافتراح، كما سألت بنو إسرائيل موسى ﷺ تعتاً وتكديباً وعناداً، ومن يشتر الكفر بالإيمان فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال، وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء واتباعهم والانقياد لهم إلى مخالفتهم وتكذيبهم والافتراح عليهم بالأسئلة التي لا يحتاجون إليها على وجه التعنت والكفر. في الصحيحين «إن أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته» وفي صحيح مسلم «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان من قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإن نهيتكم عن شيء فاجتنبوه» وفي الصحيحين «كان ينهى عن قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال».

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٧٩).

يحذر تعالى عباده المؤمنين عن سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب، ويعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم، ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والعفو، أو الاحتمال حتى يأتي أمر الله من النصر والفتح.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١٨٠).

ويحثهم تعالى على الاشتغال بما ينفعهم، وتعود عليهم عاقبته يوم القيامة من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة حتى يمكن الله لهم النصر في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

فهم مهما فعلوا من خير أو شر سراً وعلانية فهو به بصير، لا يخفى عليه منه شيء، فيجزئهم بالإحسان خيراً، وبالإساءة مثلاً، وهذا الكلام، وإن كان قد خرج مخرج الخبر فإن فيه وعداً ووعيداً وأمرًا وزجراً، وذلك أنه أعلم القوم أنه بصير بجميع أعمالهم ليجدوا في طاعته، إذ كان ذلك مذخوراً لهم عنده حتى يثيبهم عليه، وليحذروا معصيته.

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾

يبين تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه، حيث ادعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها كما أخبر الله عنهم في سورة المائدة أنهم قالوا ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا﴾ [المائدة: 18] فأكذبهم الله تعالى بما أخبرهم أنه معذبهم بذنوبهم، ولو كانوا كما ادعوا لما كان الأمر كذلك، وكما تقدم من دعواهم أنه لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، ثم ينتقلون إلى الجنة، ويرد عليهم تعالى في ذلك، وهكذا قال لهم في هذه الدعوى التي ادعوا بها دليل ولا حجة ولا بينة فقال: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ أي أمانتي تمنوها على الله بغير حق ﴿قُلْ هَاتُوا﴾ حجتكم على ذلك ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تدعونه.

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرٌ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾

أي من أخلص دينه لله، واتبع فيه الرسول ﷺ فإن الله ضمن لهم على ذلك تحصيل الأجور، وآمنهم مما يخافون من المحذور فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه، ولا هم يحزنون على ما مضى مما يتركونه. وللعمل المتقبل شرطان: أحدهما أن يكون خالصاً لله وحده، والآخر أن يكون صواباً موافقاً للشريعة، فمتى كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يتقبل، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» فعمل الرهبان ومن شابههم، وإن فرض أنهم مخلصون فيه لله، فإنه لا يتقبل منهم حتى يكون ذلك متابعاً للرسول عليه الصلاة والسلام، المبعوث إليهم، وإلى الناس كافة، وفيهم وفي أمثالهم قال الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿١١٣﴾﴾ [الفرقان: 23] وقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ يَفِيعَةٍ يَحْسَبُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ سَائِغًا ﴿١١٤﴾﴾ [الشورى: 39] وقال: ﴿وَجُودٌ يَوْمَ حُنَيْنٍ ﴿١١٥﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿١١٦﴾ تَصَلَّىٰ نَارًا كَاطِيَةً ﴿١١٧﴾ تَشَقَّىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿١١٨﴾﴾ [الناشئة: 2-5] وروي عن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أنه تأولها في الرهبان، وأما إن كان العمل موافقاً للشريعة في الصورة الظاهرة، ولكن لم يخلص عامله القصد لله، فهو أيضاً مردود على فاعله، وهذا حال المرابين والمنافقين كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء: 142] وكما قال في هذه الآية: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ .

بين الله تعالى تناقضهم وتباغضهم وتعاندهم وتعاديهم، وأن كل طائفة تكفر الأخرى وهم يعلمون أن كلاً من شريعة التوراة والإنجيل كانت مشروعة في وقت، ولكنهم تجاحدوا فيما بينهم عناداً وكفراً، ومقابلة الفاسد للفاسد، والذين لا يعلمون من اليهود والنصارى قالوا مثل قولهم، والذين لا يعلمون من العرب قالوا: ليس محمد على شيء، فالله يجمع بينهم يوم المعاد، ويفصل بينهم بقضائه العدل الذي لا يجور فيه ولا يظلم مثقال ذرة.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَاسْمَىٰ فِي خَرَابٍ أَوْ لَيْتِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ .

قيل: هم النصارى كانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى، ويمنعون الناس أن يصلوا فيه، وقيل: هم المشركون وهو الظاهر فقد حالوا بين رسول الله ﷺ يوم الحديبية، وبين أن يدخلوا مكة حتى نحر هديه بذى طوى وهادنهم ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابٍ﴾ إذ قطعوا من يعمرها بذكره، ويأتيها للحج والعمرة. أقول: ولا مانع من أن تبقى الآية على عمومها فتشمل من فعل ذلك إلى يومنا هذا، وإلى ما بعده. ﴿أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ أي لا تمكنوا هؤلاء إذا قدرتم عليهم من دخولها إلا تحت الهدنة والجزية. والجزاء من جنس العمل، فكما صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام صدوا عنه، وكما أجلوهم من مكة أجلوا عنها، ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ على ما انتهكوا من حرمة البيت، وامتحنوه من نصب الأصنام حوله، ودعاء غير الله عنده، وغير ذلك من أفاعيلهم التي يكرها الله ورسوله، وكذلك الذين خربوا بيت المقدس فإنهم بعد الإسلام صاروا يدخلون بيت المقدس خانفين بأداء الجزية.

﴿وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَشَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ .

وهذا والله أعلم فيه تسلية للرسول ﷺ وأصحابه الذين أخرجوا من مكة، وفارقوا مسجدهم، ومصلاهم، وقد كان رسول الله ﷺ يصلي بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه، فلما قدم المدينة وجه إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، ثم صرفه الله إلى الكعبة، فارتاب من ذلك اليهود وقالوا: ﴿مَا وَلَّهُمْ عَنْ قِبَلِهِمْ أَلَىٰ كَانُوا عَلَيْهَا﴾ أنزل الله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: 142] وقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَشَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾. وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ إذناً من الله أن يصلي المتطوع حيث توجه من شرق أو غرب في مسيره في سفره، وفي

حال المسابقة، وشدة الخوف، عن ابن عمر أنه كان يصلي حيث توجهت به راحلته، ويذكر أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك، ويتأول هذه الآية.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُۥٓ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ كُلُّ لَّهُ قٰنِیْنُوْنَ ﴿۱۱۶﴾ ۝۱۱۶﴾

اشتملت هذه الآية والتي تليها على الرد على النصارى عليهم لعائن الله، وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب ممن جعل الملائكة بنات الله، فأكذب الله جميعهم في دعواهم، وفي قولهم: إن لله ولداً، فقال تعالى: ﴿سُبْحٰنَهُۥٓ﴾ أي تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً ﴿بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ﴾ أي ليس الأمر كما افتروا، وإنما له ملك السموات والأرض ومن فيهن، وهو المتصرف فيهم، وهو خالقهم ورازقهم، ومقدرهم ومسخرهم، ومسيرهم ومصرفهم كما يشاء، والجميع عبيد له وملك له، فكيف يكون له ولد منهم، والولد إنما يكون متولداً من شيتين متناسبين وهو تبارك وتعالى ليس له نظير ولا مشارك في عظمته وكبريائه ولا صاحبة له فكيف يكون له ولد؟ كما قال تعالى: ﴿بَدِیْعَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ...﴾ أي خالقهما على غير مثال سبق. ﴿قٰنِیْنُوْنَ﴾ مصلون، ومطيعون.

﴿وَقَالَ الَّذِیْنَ لَا یَعْلَمُوْنَ لَوْلَا یُكَلِّمُنَا اللّٰهُ اَوْ تَاْتِنَاۤءِۤ اٰیَةً كَذٰلِكَ قَالَ الَّذِیْنَ مِنْ قَبْلِہِم مِّثْلَ قَوْلِہِمۡ تَشٰبَهَتْ قُلُوْبُهُمْۗ قَدْ بَیِّنَّاۤ اَلَاٰیٰتِ لِقَوْمٍ یُّوقِنُوْنَ ﴿۱۱۷﴾ ۝۱۱۷﴾

قال رافع بن حرملة لرسول الله ﷺ: يا محمد إن كنت رسولا من الله كما تقول، فقل لله، فيكلمنا حتى نسمع كلامه، فأنزل الله هذه الآية: ﴿يُكَلِّمُنَا اللّٰهُ﴾ يخاطبنا بنبوتك. ﴿قَالَ الَّذِیْنَ مِنْ قَبْلِہِم﴾ هم اليهود والنصارى. والذين طلبوا من رسول الله ﷺ ذلك هم كفار العرب، لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِیْنَ لَا یَرْجُوْنَ لِقَاۤءَنَا لَوْلَا اُنزِلَ عَلَیْنَا الْمَلٰٓئِكَةُ اَوْ نَرٰی رَبَّنَا﴾ [الفرقان: 21].

﴿اِنَّا اَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِیْرًا وَّنٰذِیْرًا وَّلَا تُشٰقِلُ عَنْ اَصْحٰبِ الْجَبْرِیۡنِ ﴿۱۱۸﴾ ۝۱۱۸﴾

﴿بَشِیْرًا﴾ بالجنة. ﴿وَّنٰذِیْرًا﴾ من النار. ﴿وَّلَا تُشٰقِلُ عَنْ اَصْحٰبِ الْجَبْرِیۡنِ﴾ أي لا نسألك عن كفر من كفر بك.

﴿وَلَنْ تَرْضٰی عَنْكَ الْیَہُودُ وَّلَا النَّصٰرَی حَتّٰی تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْۗ قُلْ اِنْ هٰدٰی اللّٰهُ هُوَ الْهٰدِیُّ وَاِلٰیۤنِ اَتَّبَعْتَ اَهْوَاۤءَهُمْ بَعْدَ الَّذِیۡ جَاۤءَكَ مِنَ الْعِلْمِۗ مَا لَكَ مِنَ اللّٰهِ مِنْ وَّلِیٍّ وَّلَا نَصِیْرٍ ﴿۱۱۹﴾ ۝۱۱۹﴾

وليست اليهود يا محمد ولا النصارى براضية عنك أبداً، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق، وقل لهم: إن هدى الله الذي بعثني به هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل، ﴿وَلٰیۤنِ اَتَّبَعْتَ اَهْوَاۤءَهُمْ...﴾ فيه تهديد ووعيد شديد

للأمة عن اتباع طرائق اليهود والنصارى بعدما علموا من القرآن والسنة عياداً بالله من ذلك، فإن الخطاب للرسول والأمر لأمة.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ ۖ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ﴾ (١١٦).

هم اليهود والنصارى، أو هم أصحاب رسول الله ﷺ، قال ابن مسعود: والذي نفسي بيده، إن حق تلاوته أن يحل حلاله، ويحرم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله، ولا يحرف الكلم عن مواضعه، ولا يتأول منه شيئاً غير تأويله. ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ...﴾ في الصحيح «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة! يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا من دخل النار».

﴿يٰٓبَنِي إِسْرٰٓءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي اٰنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَاِنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعٰلَمِينَ ﴿١٢٣﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزٰٓى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (١٢٣).

قد تقدم نظير هذه الآية في صدر السورة «الآية ٤٧، ٤٨» وكررت هاهنا للتأكيد والحث على اتباع الرسول النبي الأمي الذي يجدون صفته ونعته واسمه وأمره وأمة، فحذرهم من كتمان هذا، وكتمان ما أنعم به عليهم، وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم من النعم الدنيوية والدينية، ولا يحسدوا بني عمهم من العرب على ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم، ولا يحملهم ذلك الحسد على مخالفته وتكذيبه والحيد عن موافقته. صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

﴿وَإِذِ ابْتَلٰٓىٓ اِبْرٰٓهٖمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمٰتٍ فَاَتَمَّهُنَّ ۗ قَالَ اِنِّىۤ اِنۢىۤ جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ اِمٰمًا ۗ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِيۤ ۗ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّٰلِمِيْنَ ﴿١٢٤﴾﴾.

أي واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذين يتحلون ملة إبراهيم وليسوا عليها، وإنما الذي هو عليها مستقيم فأنت والذين معك من المؤمنين، اذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم أي اختباره له بما كلفه من الأوامر والنواهي ﴿فَاتَمَّهُنَّ﴾ أي قام بهن كلهن ﴿وَابْرٰٓهٖمَ الَّذِي وُقِّىَ﴾ [النجم: 37] وقيل في تعيين «الكلمات» التي ابتلي بها إبراهيم إنها المناسك، وقيل: إنها قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس وحلق العانة والختان ونتف الإبط وغسل أثر الغائط والبول بالماء، وقيل: الإسلام ثلاثون سهماً منها عشر آيات في «براءة» ﴿التَّٰكِيۡنَ الْمُؤْمِنَ﴾ [التوبة: 112] إلى آخر الآية، وعشر آيات في أول سورة ﴿قَدْ اَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: 1] و﴿سَآلَ سَآلٍۭٓ يٰۤعٰذِبِ رَاقِعٍ﴾ [المعارج: 1] وعشر آيات في الأحزاب ﴿اِنَّ الْمُسْلِمِيْنَ وَالْمُسْلِمٰتِ﴾ [الأحزاب: 35] إلى آخر الآية، فآتمهن كلهن فكتبت له براءة. وابتلاه بذبح ولده وبالنار، وبالكوكب والشمس والقمر فوجده صابراً. ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ لما جعل الله إبراهيم إماماً سأل الله أن تكون الأئمة من بعده من ذريته فأجيب إلى ذلك، وأخبر أنه سيكون من ذريته ظالمون، وأنه لا ينالهم عهد الله، ولا يكونون أئمة، فلا يقتدى بهم.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ وَعِهدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ .

يذكر الله تعالى شرف البيت، وما جعله موصوفاً به شرعاً وقدرأً من كونه ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي جعله محلاً تشناق إليه الأرواح، وتحن إليه، ولا تقضي فيه وطراً ولو ترددت إليه كل عام استجابة من الله لدعاء خليله إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿فَجَعَلْ أَمِينًا مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: 37] إلى أن قال: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ [إبراهيم: 40] ويصفه تعالى بأنه جعله أمناً، من دخله أمن، ولو كان قد فعل ما فعل ثم دخله كان أمناً. ومقام إبراهيم هو الحرم كله، أو هو الحج كله، أو هو الحجر الذي كان يقوم عليه إبراهيم، وناوله إسماعيل الحجارة، وفي الحديث «لما طاف النبي صلى الله عليه وسلم قال له عمر: هذا مقام أئينا؟ قال: نعم، قال: أفلا نتخذة مصلى؟ فأنزل الله ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ﴾ وقد أمر الله إبراهيم وإسماعيل أن يطهرا البيت من الأذى والنجس ومن الأوثان والرث وقول الزور والرجس ﴿وَالْمَكِينِينَ﴾ المقيمين فيه.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الشُّرْمِ مَن ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالِ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ .

عن أبي هريرة قال: كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاؤوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا أخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اللهم بارك لنا في ثمرنا، وبارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مدنا، اللهم إن إبراهيم عبدك وخليك ونيبك، وإني عبدك ونيبك، وإنه دعاك لمكة، وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة، ومثله معه» ثم يدعو أصغر وليد صح فيعطيه ذلك الثمر. ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾ ومن كفر فأرزقه رزقاً قليلاً أيضاً، ثم ألجئه بعد متاعه في الدنيا وبسطنا عليه من ظلها إلى عذاب النار وبئس المصير، فالله سبحانه ينظرهم ويمهلهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ .

﴿الْقَوَاعِدُ﴾ جمع قاعدة، وهي السارية والأساس. يقول تعالى: واذكر يا محمد لقومك بناء إبراهيم وإسماعيل عليه السلام البيت، ورفعهما القواعد منه، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا...﴾ .

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ .

فهما في عمل صالح، وهما يسألان الله تعالى أن يتقبل منهما، إذ يشفقان أن لا يتقبل منهما، كما حكى الله عن حال المؤمنين الخالص في قوله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوْا﴾ [المؤمنون: 60] أي يعطون ما أعطوا

من الصدقات والنفقات والقربات ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: 60] أي خائفة أن لا يتقبل منهم. في الحديث «لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية - أو قال بكفر - لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله، ولجعلت بابها بالأرض، ولأدخلت فيها الحجر» ﴿وَأَرْنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أخرجها لنا، وعلمناها، قال مجاهد: فأتاه جبريل، فأتى به البيت، فقال: ارفع القواعد فرفع القواعد، وأتم البنيان، ثم أخذ بيده فأخرجه فانطلق به إلى الصفا، قال: هذا من شعائر الله، ثم انطلق به إلى المروة فقال: وهذا من شعائر الله، ثم انطلق به نحو منى. فلما كان من العقبة إذا إبليس قائم عند الشجرة فقال: كبر وارمه فكبر ورماه، ثم انطلق إبليس فقام عند الحجرة الوسطى فلما جاز به جبريل وإبراهيم قال له: كبر وارمه فكبر ورماه، فذهب الخبيث إبليس، وكان الخبيث أراد أن يدخل في الحج شيئاً فلم يستطع، فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به المشعر الحرام، فقال: هذا المشعر الحرام، فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به عرفات، قال: قد عرفت ما أريتك؟ قالها ثلاث مرات، قال: نعم.

﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٢٩).

يقول تعالى إخباراً عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم، أي من ذرية إبراهيم وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدر الله السابق في تعيين محمد ﷺ رسولاً في الأمين إليهم وإلى سائر الأعجميين من الإنس والجن. وفي الحديث «إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجبل في طيئته، وسأنبئكم بأول ذلك، دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى لي، ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يرين» ﴿الْكِتَابَ﴾ القرآن. ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ يعني السنة. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يعني طاعة الله والإخلاص. ﴿الْعَزِيزُ﴾ هو الذي لا يعجزه شيء، وهو قادر على كل شيء. ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وأقواله، فيضع الأشياء في محالها لعلمه وحكمته وعدله.

﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٣٠).

يقول تبارك وتعالى رداً على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله المخالف لملة إبراهيم إمام الحنفاء، فإنه جرد توحيد ربه تبارك وتعالى فلم يدع معه غيره، ولا أشرك به طرفه عين، وتبرأ من كل معبود سواه، وخالف في ذلك سائر قومه حتى تبرأ من أبيه ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [الزخرف: 26] ﴿سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ ظلمها بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال، حيث خالف طريق من اصطفى في الدنيا للهداية والرشاد من حادثة سنه إلى أن اتخذ الله خليلاً، وهو في الآخرة من الصالحين السعداء، فمن ترك طريقه هذا ومسلكه وملته واتبع طرق الضلالة والغبي فأى سفه أعظم من هذا؟.

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ قَالَ أَسْلَمْتُ رَبِّي الْمَلَائِكَةَ﴾ .

أي أمره الله بالإخلاص له والاستسلام والانقياد فأجاب إلى ذلك شرعاً وقدرأً .

﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَيْنَهُ وَيَعْقُوبَ يَنْبَغِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ .

أي وصى بهذه الملة، وهي الإسلام لله، أوصى بهذه الكلمة ﴿أَسْلَمْتُ رَبِّي الْمَلَائِكَةَ﴾ لحرصهم عليها ومحبتهم لها، فقد حافظوا عليها إلى حين الوفاة، ووصوا أبناءهم بها من بعدهم ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ﴾ [الزخرف: 28] وقوله: ﴿يَنْبَغِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى﴾ أي أحسنوا في حال الحياة، والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه، فإن المرء يموت غالباً على ما كان عليه ويبعث على ما مات عليه .

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ .

يقول الله تعالى محتجاً على المشركين من العرب أبناء إسماعيل وعلى الكفار من بني إسرائيل - وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام - بأن يعقوب لما حضرته الوفاة وصى بنيه بعبادة الله وحده لا شريك له . وإسماعيل لم يكن أباه، بل كان عمه، فهو من باب التغليب قال النحاس: والعرب تسمى العم أبا . ﴿إِلَهًُا وَاحِدًا﴾ أي نوحده بالألوهية ولا نشرك به شيئاً غيره . ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أي مطيعون خاضعون . والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة، وإن تنوعت شرائعهم، واختلفت مناهجهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25] وفي الحديث «نحن معاشر الأنبياء أولاد علات، ديننا واحد» .

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

﴿قَدْ خَلَتْ﴾ قد مضت . ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ أي أن السالفين الماضين من آباءكم من الأنبياء والصالحين لا ينفَعكم انتسابكم إليهم إذا لم تفعلوا خيراً يعود نفعه عليكم، فإن لهم أعمالهم ولكم أعمالكم . وفي الحديث: «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه» .

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .

قال عبد الله بن سوريا الأعمور لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ما الهدى إلا ما نحن عليه فاتبعنا يا محمد تهتد، وقالت النصرارى مثل ذلك، فأنزل الله عز وجل هذه الآية . وقوله: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي لا نريد ما دعوتونا إليه من اليهودية والنصرانية، بل نتبع ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي مستقيماً خالصاً .

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ وَلَا تَقْرَأُوا الْقُرْآنَ وَلَا تَسْمَعُوا وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا لَمْ نُحِمْسِكُمْ بِهِ وَمَا نَسْتَفْتِي بِهِ﴾ [النساء: 159، 150] ﴿وَالْأَسْبَابُ﴾ حفدة يعقوب: ذراري أبنائه الاثني عشر، أو الأسباب قبائل بني إسرائيل. عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل الله».

﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ كَفَرُوا فَمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ نَسَبِكُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [النساء: 137].

يقول تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا﴾، يعني الكفار من أهل الكتاب وغيرهم بمثل ما آمنتم به يا أيها المؤمنون من الإيمان بجميع كتب الله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم ﴿فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ أي فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه. ﴿وَإِنْ كَفَرُوا﴾ أي عن الحق إلى الباطل بعد قيام الحجة عليهم ﴿فَمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ نَسَبِكُمْ اللَّهُ﴾ أي فسنبصرك الله عليهم ويطفرك بهم ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [النساء: 138].

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ فطرة الله، أي الزموا ذلك، وعليكموه، وقد ورد في حديث عن ابن عباس أن نبي الله ﷺ قال: «إن بني إسرائيل قالوا: يا رسول الله، هل يصبغ ربك؟ فقال: اتقوا الله، فناداه ربه، يا موسى، سألوكم هل يصبغ ربك؟ فقل: نعم، أنا أصبغ الألوان: الأحمر والأبيض والأسود والألوان كلها من صبغي» وأنزل الله على نبيه ﷺ ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾.

﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلِنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ [النساء: 139].
يقول الله تعالى مرشداً نبيه صلوات الله وسلامه عليه إلى درء مجادلة المشركين ﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾ أي أتناظروننا في توحيد الله والإخلاص له والانقياد واتباع أوامره، وترك زواجه ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ المتصرف فينا وفيكم، المستحق لإخلاص الإلهية له وحده، لا شريك له ﴿وَلِنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ أي نحن براء منكم، ومما تعبدون، وأنتم براء منا كما قال في الآية الأخرى ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 41] وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ أي في العبادات والتوجه إليه.

﴿أَمْ نَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ مَا أَعْلَمُ أَمْرَ اللَّهِ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَبَ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ .

ثم أنكر تعالى عليهم في دعواهم أن إبراهيم ومن ذكر بعده من الأنبياء والأسباط كانوا على ملتهم: إما اليهودية وإما النصرانية فقال: ﴿قُلْ مَا أَعْلَمُ أَمْرَ اللَّهِ﴾ يعني بل الله أعلم، وقد أخبر أنهم لم يكونوا هوداً ولا نصارى كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران: 67] وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَبَ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّهِ﴾ قال الحسن البصري: كانوا يقرؤون في كتاب الله الذي أتاهم: إن الدين الإسلام، وإن محمداً رسول الله، وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا برآء من اليهودية والنصرانية فشهدوا الله بذلك وأقروا على أنفسهم الله فكتبوا شهادة الله عندهم من ذلك وقوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد ووعد شديد، أي إن علمه محيط بعملكم وسيجزيكم عليه.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنتَفُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾ .

﴿قَدْ خَلَتْ﴾ قد مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي لهم أعمالهم ولكم أعمالكم ﴿وَلَا تُنتَفُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وليس يغني عنكم إليهم من غير متابعة منكم لهم، ولا تغفروا بمجرد النسبة إليهم حتى تكونوا منقادين مثلهم لأوامر الله، واتباع رسله الذين بعثوا مبشرين ومنذرين، فإنه من كفر بنبي واحد فقد كفر بسائر الرسل ولا سيما بخاتم الأنبياء وسيد المرسلين ورسول رب العالمين إلى جميع الإنس والجن المكلفين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله أجمعين.

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ .

﴿السُّفَهَاءُ﴾ قيل: المراد بهم هنا مشركو العرب، وقيل: أحبار يهود، وقيل: المنافقون، والآية عامة في هؤلاء كلهم، والله أعلم. في الحديث: «صلى رسول الله ﷺ إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن كان معه فمر على أهل المسجد وهم راكعون، فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل مكة، فداروا كما هم قبل البيت، وكان الذي قد مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجالاً قتلوا لم ندر ما نقول فيهم فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ...﴾ أي الحكم والتصرف والأمر كله لله ﴿فَأَيُّنَمَا تَوَلَّوْا فَوَجْهَ اللَّهِ﴾، أي الشأن كله في امتثال أوامره فحيثما توجهنا فالطاعة في امتثال أوامره، ولو وجهنا كل يوم مرات إلى جهات متعددة فنحن عبده.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٣﴾﴾ .

الوسط: العدل. ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ...﴾ في الحديث «يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجلان وأكثر من ذلك، فيدعى قومه فيقال: هل بلغكم هذا؟ فيقولون: لا، فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم، فيقال: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيدعى محمد وأمته، فيقال لهم: هل بلغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم، فيقال: وما علمكم؟ فيقولون: جاء نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا». وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي...﴾ يقول تعالى: إنما شرعنا لك يا محمد التوجه أولاً إلى بيت المقدس، ثم صرفناك عنها إلى الكعبة، ليظهر حال من يتبعك ويطيعك، ويستقبل معك حيثما توجهت ممن ينقلب على عقبيه، أي يرتد عن دينه، ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ أي هذه الفعلة، وهو صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة، أي وإن كان هذا الأمر عظيماً في النفوس إلا على الذين هدى الله قلوبهم وأيقنوا بتصديق الرسول، وأن كل ما جاء به فهو الحق الذي لا مرية فيه، وأن الله يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، فله أن يكلف عباده بما شاء، وينسخ ما يشاء، وله الحكمة التامة، والحجة البالغة في جميع ذلك، بخلاف الذين في قلوبهم مرض، فإنه كلما حدث أمر أحدث لهم شقاً. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي ثواب صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك.

﴿قَدْ رَأَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ .

عن ابن عباس، كان أول ما نسخ من القرآن القبلة، وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة - وكان أكثر أهلها اليهود - فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً، وكان يحب قبلة إبراهيم، فكان يدعو إلى الله وينظر إلى السماء فأنزل الله هذه الآية: ﴿شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ إلى الكعبة. وأحد قولي الشافعي أن الغرض إصابة عين الكعبة، والقول الآخر وعليه الأكثر أن المراد المواجهة، وفي الحديث «ما بين المشرق والمغرب قبلة»، وفي الحديث أيضاً «البيت قبلة لأهل المسجد، والمسجد قبلة لأهل الحرم، والحرم قبلة لأهل الأرض في مشارقتها ومغاربها من أمتي». وقوله ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ...﴾ أي واليهود الذين أنكروا استقبالكم الكعبة، وانصرفكم عن بيت المقدس يعلمون أن الله تعالى سيجعلك إليها بما في كتبهم عن أنبيائهم من النعت والصفة لرسول الله ﷺ وأمته وما خصه الله تعالى به وشرفه من الشريعة الكاملة العظيمة، ولكن أهل الكتاب يتكاثرون ذلك بينهم حسداً وكفراً وعناداً ولهذا تهدمهم الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ .

﴿وَلَيْنَ آتَيْنَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ
بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِن آتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ
الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ .

يخبر الله تعالى عن كفر اليهود وعنادهم ومخالفتهم ما يعرفونه من شأن رسول الله ﷺ، وأنه لو أقام
عليهم كل دليل على صحة ما جاءهم به لما اتبعوه وتركوا أهواءهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ
حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٤٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٤٧﴾﴾ [يونس: 96، 97] وقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ إخبار عن شدة متابعة الرسول ﷺ لما أمره الله تعالى به، وأنه
كما هم مستمسكون بأرائهم وأهوائهم فهو أيضاً مستمسك بأمر الله وطاعته، واتباع مرضاته وأنه لا
يتبع أهواءهم في جميع أحواله، ولا كونه متوجهاً إلى بيت المقدس لكونها قبلة اليهود، وإنما ذلك
عن أمر الله تعالى، ثم حذر تعالى عن مخالفة الحق الذي يعلمه العالم إلى الهوى، فإن العالم الحجة
عليه أقوم من غيره، ولهذا قال مخاطباً للرسول، والمراد به الأمة ﴿وَلَئِن آتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ
بَعْدِ﴾ .

﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ
يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ .

يخبر تعالى أن علماء اليهود من أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول ﷺ كما يعرف أحدهم
ولده، والعرب كانت تضرب المثل بصحة الشيء بهذا، ثم أخبر تعالى أنهم مع هذا التحقق والاتقان
العلمي ﴿لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ . أي ليكتُمون الناس ما في كتبهم من صفة النبي ﷺ ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ .

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ .

ثم ثبت تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين، وأخبرهم بأن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الذي لا مرية فيه،
ولا شك فقال: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ...﴾ .

﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّبٌ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾ .

يقول: لكل قبيلة من أهل الأديان قبلة يرضونها، ووجهة الله حيث توجه المؤمنون، وهذه الآية
شبيهة بقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يَسْبَأُكُمْ فِي
مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المائدة: 48] وقال ههنا: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ
اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي هو قادر على جمعكم من الأرض وإن تفرقت أجسادكم
وأبدانكم .

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمَنَعِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ .

هذا أمر ثان وثالث من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الأرض، وقد اختلفوا في حكمة هذا التكرار ثلاث مرات، فقيل: تأكيد لأنه أول ناسخ وقع في الإسلام، وقيل: بل هو منزل على أحوال، فالأمر الأول لمن هو مشاهد الكعبة، والثاني لمن هو في مكة غائبا عنها، والثالث لمن هو في بقية البلدان. وقيل إنما ذكر ذلك لتعلقه بما قبله أو بعده من السياق، فأجابه أولاً إلى طلبته، وأمره بالقبلة التي كان يود التوجه إليها ويرضاها، وفي الأمر الثاني ذكر أنه الحق من الله، وارتقاءه المقام الأول حيث كان موافقاً لرضا الرسول ﷺ، فبين أنه الحق أيضاً من الله يحبه ويرضيه، وذكر في الأمر الثالث حكمة قطع حجة المخالف من اليهود الذين كانوا يتحججون باستقبال الرسول إلى قبلتهم، وقد كانوا يعلمون بما في كتبهم أنه سيصرف إلى قبلة إبراهيم عليه السلام إلى الكعبة، وكذلك مشركو العرب انقطعت حججهم لما صرف الرسول ﷺ عن قبلة اليهود إلى قبلة إبراهيم التي هي أشرف وقد كانوا يعظمون الكعبة، وأعجبهم استقبال الرسول إليها. وقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أي أهل الكتاب فإنهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجه إلى الكعبة، فإذا فقدوا ذلك من صفتها ربما احتجوا بها على المسلمين، ولثلا يحتجوا بموافقة المسلمين إياهم في التوجه إلى بيت المقدس. ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ يعني مشركي قريش. ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ أي لا تخشوا شبه الظلمة المتعنتين، وأفردوا الخشية لي، فإنه تعالى هو أهل أن يخشى منه. ﴿وَلَا تَمَنَعِي عَلَيْكُمْ﴾ فيما شرعت لكم من استقبال الكعبة لتكمل لكم الشريعة من جميع وجوها. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي إلى ما ضلت عنه الأمم حيث هديناكم إليه، وخصناكم به، ولهذا كانت هذه الأمة أشرف الأمم وأفضلها.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ .

يذكر الله عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد ﷺ إليهم، يتلو عليهم آيات الله مبینات، ويزكيهم أي يطهرهم من رذائل الأخلاق وذنس النفوس، وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويعلمهم الكتاب، وهو القرآن، والحكمة، وهي السنة. ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمونه، فانتقلوا ببركة رسالته ويمن سفارته إلى حال الأولياء، وسجاياء العلماء، فصاروا أعمق الناس علماً، وأبرهم قلوباً، وأقلهم تكلفاً، وأصدقهم لهجة ولهذا ندب الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة، ومقابلتها بذكره وشكره كما جاء في الآية التالية.

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (١٥٦).

يقول: كما فعلت فاذكروني، وفي الحديث الصحيح «يقول الله تعالى: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه». ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ أمر الله تعالى بشكره ووعد على شكره بمزيد الخير.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥٧).

لما فرغ تعالى من بيان الأمر بالشكر شرع في بيان الاستعانة بالصبر والصلاة، فإن العبد إما أن يكون في نعمة فيشكر عليها، أو في نقمة فيصبر عليها، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ «كان إذا حز به أمر صلي» والصبر صبران: فصبر على ترك المحارم، والمآثم، وصبر على فعل الطاعات والقربات، والثاني أكثر ثواباً لأنه المقصود، وأما الصبر الثالث، وهو الصبر على المصائب والنوائب، فذاك أيضاً واجب كاستغفار من المعاييب. قال علي بن الحسين زين العابدين: «إذا جمع الله الأولين والآخرين ينادي مناد أين الصابرون ليدخلوا الجنة قبل الحساب؟ قال: فيقوم عنق من الناس فتلقاهم الملائكة، فيقولون إلى أين يا بني آدم؟ فيقولون: إلى الجنة، فيقولون: قبل الحساب؟ قالوا: نعم، قالوا: ومن أنتم؟ قالوا: نحن الصابرون، قالوا: وما كان صبركم؟ قالوا: صبرنا على طاعة الله، وصبرنا عن معصية الله، حتى توفانا الله، قالوا: أنتم كما قلت، ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ءَامُوتَ بَلْ ءَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (١٥٨).

يخبر تعالى أن الشهداء في برزخهم أحياء يرزقون، كما جاء في صحيح مسلم «أن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش، فاطلع عليهم ربك اطلاعة، فقال: ماذا تبغون؟ فقالوا: يا ربنا، وأي شيء نبغي وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا، فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا، قالوا: نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا، فنقاتل في سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى - لما يرون من ثواب الشهادة - فيقول الرب جل وعلا: إني كتبت أنهم إليها لا يرجعون.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ

الصَّابِرِينَ﴾ (١٥٩).

أخبرنا تعالى أنه يتلي عباده، أي يختبرهم ويمتحنهم، فتارة بالسراء، وتارة بالضراء من خوف وجوع، كما قال تعالى: ﴿فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ [النحل: 112] فإن الجائع والخائف كل منهما يظهر ذلك عليه. ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾ أي ذهاب بعضها. ﴿وَالْأَنْفُسِ﴾ كموت الأصحاب

والأقارب والأحباب. ﴿وَالْتَرَّتْ﴾ أي لا تغل الحقائق والمزارع كعادتها، وكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده، فمن صبر أثابه، ومن قنط أحل به عقابه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَسِّرِ الصَّابِرِينَ﴾. وقد حكى بعض المفسرين أن المراد من الخوف ههنا خوف الله، وبالجموع صيام رمضان، وبتقص الأموال الزكاة، وبالأنفس الأمراض، وبالثمرات الأولاد، وفي هذا نظر، والله أعلم.

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (١٥٦).

أي تسولوا يقول لهم هذا عما أصابهم، وعلموا أنهم ملك لله، يتصرف في عبيده بما يشاء، وعلموا أنه لا يضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة، فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده وأنهم إليه راجعون في الدار الآخرة.

﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (١٥٧).

﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ أي ثناء من الله عليهم. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: «نعم العدلان، ونعمت العلاوة» فالعدلان صلوات من ربهم، ورحمة، والعلادة هدايتهم، والعلادة هي ما توضع بين العدلين، وهي زيادة في الحمل، فكذاك هؤلاء أعطوا ثوابهم، وزيدوا أيضاً.

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (١٥٨).

عن عروة عن عائشة قال: قالت: أرأيت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ...﴾ قلت: فوالله ما على أحد جناح أن لا يطوف بهما فقالت عائشة: بسما قلت يا ابن أخي، إنها لو كانت على ما أولتها عليه كانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما، ولكنها إنما أنزلت أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل، وكان من أهل لها يتحرج أن يطوف بالصفاء والمروة، فسألوا رسول الله عن ذلك، فقالوا: يا رسول الله، إنا كنا نتحرج أن نطوف بالصفاء والمروة في الجاهلية فأنزل الله هذه الآية.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ﴾ (١٥٩).

هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة والهدي النافع للقلوب من بعد ما بينه الله تعالى لعباده في كتبه التي أنزلها على رسوله. ﴿اللَّعِينُونَ﴾ الملائكة والمؤمنون.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاُولَئِكَ أَنُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١٦٠).

أي رجعوا عما كانوا فيه وأصلحوا أعمالهم، وبينوا للناس ما كانوا يكتُمونه ﴿فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ وفي هذا دلالة على أن الداعية إلى كفر أو بدعة إذا تاب إلى الله تاب الله عليه. لا خلاف في جواز لعن الكفار، فأما الكافر المعين فقد ذهب جماعة من العلماء إلى أنه لا يلعن لأننا لا ندري بم يختم الله له. وقالت طائفة أخرى: بل يجوز لعن الكافر المعين، واختاره الفقيه أبو بكر بن العربي المالكي ولكنه احتج بحديث فيه ضعف.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾^(١١٦).
أخبر الله تعالى عن كفر به واستمر به الحال إلى مماته بأنه ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾^(١١٧).
﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي في اللعنة التابعة لهم إلى يوم القيامة، ثم المصاحبة لهم في نار جهنم التي ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ فيها أي لا ينقص عما هم فيه ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي لا يغير عنهم ساعة واحدة، ولا يفتر، بل هو متواصل دائم، فنعوذ بالله من ذلك. قال أبو العالية وقتادة: إن الكافر يوقف يوم القيامة فيلعنه الله ثم تلعه الملائكة، ثم يلعه الناس أجمعون.

﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(١١٨).
يخبر تعالى عن تفرده بالإلهية، وأنه لا شريك له، ولا عدل له، بل هو الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لا إله إلا هو، وأنه الرحمن الرحيم.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(١١٩).

ذكر سبحانه الدليل على تفرده بالإلهية بخلق السموات والأرض وما فيهما، وما بين ذلك مما ذرأ وبرأ من المخلوقات الدالة على وحدانيته فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تلك في ارتفاعها ولطافتها واتساعها، وكواكبها السيارة، والثوابت، ودوران فلکها، وهذه الأرض في كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من المنافع ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، هذا يجيء ثم يذهب، ويخلفه الآخر، ويعقبه لا يتأخر عنه لحظة، كما قال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^(١٢٠) [يس: 40] ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ أي في تسخير البحر بحمل السفن من جانب إلى جانب لمعاش الناس والانتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم، ونقل هذا إلى هؤلاء، وما عند أولئك إلى هؤلاء ﴿وَمَا

أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴿٣٣﴾ كما قال تعالى: ﴿وَأَيُّ لَّهُمُ الْأَرْضُ الَّتِي تَحْيَا بِهَا وَأَيُّ لَّهُمُ الْأَرْضُ الَّتِي تَمُوتُ بِهَا وَأَيُّ لَّهُمُ الْأَرْضُ الَّتِي تَحْيَا بِهَا وَأَيُّ لَّهُمُ الْأَرْضُ الَّتِي تَمُوتُ بِهَا﴾ [يس: 33]. ﴿وَبَيِّنَّا فِيهَا مِنْ كُلِّ ذَاتِ حَيَاةٍ﴾ أي اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها، وهو يعلم ذلك كله ويرزق، لا يخفى عليه شيء من ذلك. ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ﴾ أي فتارة تأتي بالرحمة، وتارة تأتي بالعذاب، وتارة تأتي مبشرة بين يدي السحاب، وتارة تسوقه، وتارة تفرقه، وتارة تصرفه، ثم تارة تأتي من الجنوب، وهي الشامية أو تارة تأتي من ناحية اليمن، وتارة صباً وهي الشرقية التي تصدم وجه الكعبة، وتارة دبوراً، وهي غربية تنفذ من ناحية دبر الكعبة. ﴿وَالسَّحَابِ الَّتِي بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي سائر بين السماء والأرض مسخر إلى ما يشاء الله من الأراضي والأماكن كما يصرفه تعالى ﴿لَا تَأْتِي لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي في هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يُرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ (١٦٥).
يذكر الله حال المشركين به في الدنيا، وما لهم في الدار الآخرة، حيث جعلوا له أمثلاً ونظراء يعبدونهم معه، ويحبونهم كحبه، وهو الله لا إله إلا هو، ولا ضد له، ولا ند له، ولا شريك معه. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ ولحبهم له وتمام معرفتهم به لا يشركون به شيئاً، بل يعبدونه وحده، ويتكلمون عليه، ويلجأون في جميع أمورهم إليه. ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا...﴾ هذا توعد من الله للمشركين به الظالمين لأنفسهم.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ (١٦٦).
تبرأت منهم الملائكة والجن الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم، في الدار الدنيا، ﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ أي عاينوا عذاب الله، وتقطعت بهم الحيل وأسباب الخلاص ولم يجدوا عن النار معدلاً ومصرفاً، أو ﴿الْأَسْبَابُ﴾ هي المودة.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِكُهُمْ لَسَخَّطْنَا لَهُمْ عَنَّا كِسْفَ الْبُرْجَانِ فَكَفَرُوا وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا لَكُفْرَةٌ كَذَلِكَ يَفْعَلُ اللَّهُ بِهِمُ الْأَعْمَالُ﴾ (١٦٧).
أي لو أن لنا عودة إلى دار الدنيا حتى نتبرأ من هؤلاء ومن عبادتهم، فلا نلتفت إليهم، بل نوحدهم وحدهم بالعبادة، وهم كاذبون في هذا، بل لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وإنهم لكاذبون ﴿حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي تذهب وتضمحل، كما قال تعالى: ﴿وَقَدَّمْنَا إِيَّاهُمْ بِمَأْتِلِهِمْ مِنْ دُونِ آيَاتِنَا لِيَلْمُوا الَّذِينَ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْآيَاتِ﴾ [الفرقان: 23] ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّ مَثَلٍ فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١٦٨).

لما بين تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه المستقبل بالخلق شرع يبين أنه الرزاق لجميع خلقه، فذكر في مقام الامتنان أنه أباح لهم أن يأكلوا مما في الأرض في حال كونه حلالاً من الله ﴿طَيِّبًا﴾ أي مستطاباً في نفسه غير ضار للأبدان، ولا للعقول، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان، وهي طرائقه ومسالكه فيما أضل أتباعه فيه من تحريم البحائر والسوائب والوصائل ونحوها مما كان زينة لهم في جاهليتهم. وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ تنفير عنه، وتحذير منه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [النجم: 6] وكما قال تعالى: ﴿أَفَسَخَذُونَهُ وَذَرَيْتَهُ أُولِيَكَاءَ مِنْ دُونِهِمْ لَكُمْ عَدُوٌّ يُبَيِّنُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: 50]. وكل معصية لله فهي من خطوات الشيطان.

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ (١١٦).

إنما يأمركم عدوكم الشيطان بالأفعال السيئة، وأغلظ منها الفاحشة كالزنا ونحوه، وأغلظ من ذلك وهو القول على الله بلا علم، فيدخل في هذا كل كافر، وكل مبتدع أيضاً.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَتْ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (١٧٠).

يقول تعالى: وإذا قيل لهؤلاء الكفرة من المشركين: اتبعوا ما أنزل الله على رسوله، واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والجهل قالوا في جواب ذلك: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا﴾ أي وجدنا ﴿عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾ أي من عبادة الأصنام والأنداد، قال تعالى منكرأ عليهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَتْ ءَابَاؤُهُمْ﴾ الذين يقتدون بهم، ويقتفون أثرهم ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي ليس لهم فهم ولا هداية.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٧١).

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي فيما هم فيه من الغي والضلال والجهل كالذباب السارحة التي لا تفقه ما يقال لها، بل إذا نعق بها راعيها، أي دعاها إلى ما يرشدها لا تفقه ما يقول، ولا تفهمه، بل إنما تسمع صوته فقط وقوله تعالى: ﴿صُمُّ بِكُمْ عُمَىٰ﴾ أي صم عن سماع الحق، بكم لا يتفوهون به، عمي عن رؤية طريقه ومسلكه. ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي لا يعقلون شيئاً ولا يفهمونه كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِعَآئِنَا صُؤِّ وَبِكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشِئُ اللَّهُ يَضِلُّهُ وَمَنْ يَشِئُ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: 39].

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ

تَعْبُدُونَ﴾ (١٧١).

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم تعالى، وأن يشكروه تعالى على ذلك إن كانوا عبيده. والأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة، كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة، كما جاء في الحديث «أيها الناس، إن الله لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: 51] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء، يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنتى يستجاب لذلك.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٧٣).

ولما امتن تعالى عليهم برزقه، وأرشدهم إلى الأكل من طيبه ذكر أنه لم يحرم عليهم من ذلك إلا الميتة، وهي التي تموت حتف أنفها من غير تزكية، وسواء كانت مختنقة أو مؤودة أو متردية أو نطيحة أو عدا عليها السبع، وقد خصص الجمهور من ذلك ميتة البحر لقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ [المائدة: 96] وقوله ﷺ في البحر: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» وقوله: «أحل لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد، والكبد والطحال» وكذلك حرم عليهم لحم الخنزير سواء ذكي أو مات حتف أنفه، ويدخل شحمه في حكم لحمه، وحرم عليهم ما أهل به لغير الله، وهو ما ذبح على غير اسمه تعالى من الأنصاب والأنداد والأزلام ونحو ذلك مما كانت الجاهلية ينحرون له. ثم أباح تعالى تناول ذلك عند الضرورة والاحتياج إليها عند فقد غيرها من الأطعمة فقال: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أي في غير بغي ولا عدوان، وهو مجاوزة الحد ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي في أكل ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ غفور لما أكل من الحرام، رحيم إذا أحل له الحرام في الاضطرار. يقول عباد بن شرحبيل العنزي: أصابتنا عاماً مخمصة فأتيت المدينة فأتيت حائطاً فأخذت سنبلاً ففركته وأكلته وجعلت منه في كسائي، فجاء صاحب الحائط فضربني وأخذ ثوبي، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال للرجل: «ما أطعمته إذا كان جائعاً، ولا ساعياً، ولا علمته إذا كان جاهلاً» فأمره فرد إليه ثوبه، وأمر به بوسق من طعام، أو نصف وسق.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَسَوَّغُوا إِلَيْهِمْ وَأُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧٤).

يعني اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ في كتبهم التي بأيديهم مما تشهد له بالرسالة والنبوة، فكتموا ذلك لثلاث تذهب رياستهم، وما كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا والتحف على تعظيمهم آباءهم فخشوا لعنهم الله إن أظهروا ذلك أن يتبعه الناس ويتركوهم، فكتموا ذلك إبقاء على ما كان

يحصل لهم من ذلك، وهو نزر يسير فباعوا أنفسهم بذلك، واعتاضوا عن الهدى واتباع الحق النزر اليسير فخابوا وخسروا في الدنيا والآخرة. ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ أي إنما يأكلون ما يأكلونه في مقابلة كتمان الحق ناراً تتأجج في بطونهم يوم القيامة ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ...﴾ أي لا يثني عليهم ولا يحاجهم، بل يعذبهم عذاباً أليماً.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ (١٧٥).

أي اعتاضوا عن الهدى، وهو نشر ما في كتبهم من صفة الرسول وذكر مبعثه، والبشارة به من كتب الأنبياء، واتباعه وتصديقه استبدلوا عن ذلك واعتاضوا عنه الضلالة وهو تكذيبه والكفر به، وكتمان صفاته في كتبهم ﴿وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ أي اعتاضوا عن المغفرة بالعذاب. ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ أي فما أدمهم لعمل المعاصي التي تفضي بهم إلى النار.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (١٧٦).

أي إنما استحقوا هذا العذاب الشديد لأن الله أنزل على رسوله محمد وكل الأنبياء قبله كتبه بتحقيق الحق، وإبطال الباطل، وهؤلاء اتخذوا آيات الله هزواً، فكتابهم يأمرهم بإظهار العلم ونشره فخالفوه وكذبوه، وهذا الرسول خاتم النبيين.

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَاللَّيْطِ كَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبَانَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (١٧٧).

اشتملت هذه الآية الكريمة على جل عظيمة، وقواعد عميقة، وعقيدة مستقيمة، فعن أبي ذر أنه سأل رسول الله ﷺ ما الإيمان؟ فتلا عليه هذه الآية، قال: ثم سأله أيضاً فتلاها عليه، ثم سأله فقال: «إذا عملت حسنة أحبها قلبك، وإذا عملت سيئة أبغضها قلبك».

وأما الكلام على تفسير هذه الآية فإن الله لما أمر المؤمنين أولاً بالتوجه إلى بيت المقدس، ثم حولهم إلى الكعبة شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين، فأنزل الله بيان حكمته في ذلك، وهو أن المراد وإنما هو طاعة الله وامثال أوامره، والتوجه حيثما وجه، واتباع ما شرع، فهذا هو البر والتقوى، والإيمان الكامل، وليس في لزوم التوجه إلى جهة من المشرق أو المغرب بر ولا طاعة إن لم يكن عن أمر الله وشرعه.

﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ...﴾ فإن من اتصف بهذه الآية فقد دخل في عرى الإسلام كلها، وأخذ بمجامع

الخير كله، وهو الإيمان بالله وأن لا إله إلا هو، وصدق بوجود الملائكة الذين هم سفرة بين الله ورسله. ﴿وَأَلْكَتِيبٍ﴾ وهو اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء، حتى ختمت بأشرفها، وهو القرآن. ﴿وَمَا آتَىٰ أَمَّا عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ أي أخرجه وهو محب له راغب فيه، وفي الحديث «أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح صحيح، تأمل العيش وتخشى الفقر» ﴿ذَوَىٰ الضَّرْفِ﴾ وهم قرابات الرجل، وهم أولى من أعطي من الصدقات كما ثبت في الحديث «الصدقة على المساكين صدقة، وعلى ذوي الرحم ثنتان: صدقة وصله، فهم أولى الناس بك وببرك وعطائك». ﴿وَأَلْتَمَنَىٰ﴾ هم الذين لا كاسب لهم، وقد مات أبائهم وهم صغار دون البلوغ والقدرة على التكسب، وفي الحديث: «لا يتم بعد حلم» ﴿وَأَلْمَسَكِينَ﴾ هم الذين لا يجدون ما يكفيهم في قوتهم وكسوتهم وسكناتهم فيعطون ما تسد به حاجتهم وختلتهم، وفي الحديث «ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده التمرة والتمرتان، واللقمة واللقمتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفظن له فيتصدق عليه» ﴿وَأَبْنَ السَّبِيلِ﴾ وهو المسافر المحتاج الذي قد فرغت نفقته، فيعطى ما يوصله إلى بلده، وكذا الذي يريد سفراً في طاعة، فيعطى ما يكفيه في ذهابه وإيابه، ويدخل في ذلك الضيف. ﴿وَأَلْسَائِلِينَ﴾ وهم الذين يتعرضون للطلب فيعطون من الزكوات والصدقات كما قال الإمام أحمد، وفي الحديث «للسائل حق ولو جاء على فرس» ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ وهم المكاتبون الذين لا يجدون ما يؤدونه في كتابهم. ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ أي وأتم أفعال الصلاة في أوقاتها بركوعها وسجودها وطمأنينتها وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي. ﴿وَمَا آتَىٰ الزَّكَاةَ﴾ يحتمل زكاة النفس وتخليصها من الأخلاق الدنيئة كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشعر: 9] ويحتمل زكاة المال ﴿فِي الرِّقَابِ﴾ في حال الفقر. ﴿وَأَلْمَسَكِينَ﴾ في حال المرض والأسقام ﴿وَجِينَ الرِّبَا﴾ في حال القتال والتقاء الأعداء. ﴿صَدَقُوا﴾ في إيمانهم، لأنهم حققوا الإيمان القلبي بالأقوال والأفعال. ﴿هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ لأنهم اتقوا المحارم وفعّلوا الطاعات.

﴿يَتَّيَبُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ مِّنْ أَعْدَتِكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧٨).

يقول تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ أيها المؤمنون: حرّم بحركم، وعبدكم بعبدكم، وأنثاكم بأنثاكم، ولا تتجاوزوا أو تعتدوا كما اعتدى من قبلكم وغيروا حكم الله. ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ فالعفو أن يقبل الدية في العمد. ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ فعلى الطالب اتباع بالمعروف. ﴿وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ ويؤدي المطلوب بإحسان.

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَىٰ أَلْبَابٍ لِّمَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٧٩).

جعل الله القصاص حياة، فكم من رجل يريد أن يقتل فتمنعه مخافة أن يقتل. وفي الكتب المتقدمة:

«القتل أنفى للقتل» فجاءت هذه العبارة في القرآن أفصح وأبلغ وأوجز. ﴿يَتَأُولَى الْأَوْلِيَاءِ لَكُمْ تَتَّقُونَ﴾ يقول: يا أولي العقول والأفهام والنهى لعلكم تنزجرون وتركوا محارم الله ومآثمه. والتقوى اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُنْفِقِينَ﴾ (١٨٠).

اشتملت هذه الآية على الأمر بالوصية للوالدين والأقربين، وقد كان ذلك واجباً على أصح القولين قبل نزول آية الموارث، فلما نزلت آية الفرائض نسخت هذه، وصارت الموارث المقدرة فريضة من الله، يأخذها أهلها حتماً من غير وصية، ولا تحمل مئة الموصي، ولهذا جاء في الحديث «إن الله أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث». ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ أي مالا. ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي بالرفق والإحسان، والمراد، أن يوصي لأقربيه وصية لا تحجف بورثته، من غير إسراف ولا تقتير، كما ثبت في الصحيحين أن سعداً قال: يا رسول الله إن لي مالا، ولا يرثني إلا ابنة لي، فأوصي بثلاثي مالي؟ قال: «لا» قال فالشطر؟ قال: «لا» قال: فالثلث؟ قال: «الثلث والثلث كثير، إنك إن ترك ورثتك أغنياء، خير من أن تدعهم عالة يتكفون الناس».

﴿فَمَنْ بَدَلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَأَنَّهُ إِيَّاهُمْ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٨١).

يقول تعالى: فمن بدل الوصية وحرفها فغير حكمها وزاد فيها أو نقص، ويدخل في ذلك الكتمان لها بطريق الأولى ﴿فَأَنَّهُ إِيَّاهُمْ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ وقد وقع أجر الميت على الله، وتعلق الاثم بالذين بدلوا. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي قد اطلع على ما أوصى به الميت، وهو عليم بذلك، وبما بدله الموصى إليهم.

﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٨٢).

﴿جَنَفًا﴾ الجنف الخطأ، وقد يكون الخطأ من غير عمد، بل بقوة الشفقة من غير تبصر، وقد يكون عمداً ففيه الاثم، فللوصي والحالة هذه أن يصلح القضية، ويعدل في الوصية على الوجه الشرعي، وفي الحديث «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة، فإذا أوصى جاف في وصيته فيختم له بشر عمله فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة فيعدل في وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة» قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ الآية.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٨٣).

يقول الله تعالى مخاطباً للمؤمنين من هذه الأمة، وأمرهم بالقيام، وهو الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع بنية خالصة لله عز وجل، لما فيه من زكاة النفوس وطهارتها وتقويتها من الأخلاط

الرديئة والأخلاق الرذيلة. وذكر أنه كما أوجه عليهم فقد أوجه على من كان قبلهم، فلهم فيه أسوة، وليجتهد هؤلاء في أداء هذا الفرض أكثر مما فعل أولئك.

﴿آيَاتًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾ .

ثم بين سبحانه مقدار الصوم، وأنه ليس في كل يوم، لئلا يشق على النفوس فتضعف عن حملة وأدائه، بل في أيام معدودات، قال الحسن البصري: والله لقد كتب الصيام على كل أمة قد خلت كما كتبه علينا شهراً كاملاً، وأياماً معدودات: عدداً معلوماً. المريض والمسافر لا يصومان في حال المرض والسفر لما في ذلك من المشقة عليهما، بل يفطران ويقضيان بعدة ذلك من أيام آخر. وأما الصحيح المقيم الذي يطيق الصباح فقد كان مخيراً بين الصيام وبين الإطعام إن شاء صام، وإن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكيناً، فإن أطعم أكثر من مسكين عن كل يوم فهو خير، وإن صام فهو أفضل من الإطعام.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ .

ثم أنزل الله عز وجل: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي...﴾ فأثبت الله صيامه على المقيم الصحيح، ورضخ فيه للمريض والمسافر وثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام.

يمدح الله شهر الصيام من بين سائر الشهور بأنه اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم، فقد نزل جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا، وكان ذلك في شهر رمضان في ليلة القدر ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ [القدر: 1] ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ﴾ [الدخان: 3] ثم نزل مفرقاً بحسب الوقائع على رسول الله ﷺ ﴿هُدًى لِلنَّاسِ...﴾ هذا مدح للقرآن الذي أنزله الله هدى لقلوب العباد ممن آمن به وصدقوه واتبعوه. ﴿وَبَيِّنَاتٍ﴾ أي ودلائل وحجج بينة واضحة جلية لمن فهمها وتدبرها. ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ...﴾ أي إنما رخص لكم في الفطر في حال المرض والسفر مع تحتمه في حق المقيم الصحيح تيسيراً عليكم ورحمة بكم. ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ وإنما أمركم بالقضاء لتكملوا عدة شهركم ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُمْ﴾ أي ولتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إذا قمتم بما أمركم الله من طاعته بأداء فرائضه، وترك محارمه، وحفظ حدوده فلعلمكم أن تكونوا من الشاكرين بذلك.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (١٧٦).

قال أعرابي: يا رسول الله ﷺ، أقرب ربنا فتناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فسكت النبي ﷺ فأنزل الله هذه الآية، أي إذا أمرتهم أن يدعوني فدعوني استجبت. عن أبي موسى الأشعري قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة فجعلنا لا نصعد شرفاً، ولا نعلو شرفاً، ولا نهبط وادياً إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير، قال: فدنا منا فقال: «يا أيها الناس، اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنما تدعون سميعاً بصيراً، إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته، يا عبد الله بن قيس، ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله، وفي الحديث: «ما على ظهر الأرض من رجل مسلم، يدعو الله عز وجل بدعوة إلا آتاه الله إياها، أو كف عنه من السوء مثلها ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم» وفي الحديث «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي».

﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَّاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَّاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى الْبَيْتِ وَلَا تَبْشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَنْكُمُوهُنَّ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (١٧٧).

هذه رخصة من الله للمسلمين، ورفع لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام، فإنه كان إذا أفطر أحدهم إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء، أو ينام قبل ذلك، فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة، فوجدوا من ذلك مشقة كبيرة. والرفث هنا الجماع. ﴿هُنَّ لِيَّاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَّاسٌ لَهُنَّ﴾ يعني هن سكن لكم وأنتم سكن لهن، وقال الربيع بن أنس: هن لحاف لكم وأنتم لحاف لهن. وحاصله أن الرجل والمرأة كل منهما يخالط الآخر ويماسه ويضاجعه فناسب أن يرخص لهم في المجامعة في ليل رمضان، لئلا يشق ذلك عليهم ويخرجوا. قال الشاعر:

إذا ما الضجيع ثنى جيدها تداعت فكانت عليه لباسا

﴿تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ يعني تجامعون النساء وتأكلون وتشربون بعد العشاء. ﴿بَاشِرُوهُنَّ﴾ يعني جامعوهن. ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ يعني الولد. ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى...﴾ أباح تعالى الأكل والشرب مع ما تقدم من الجماع في أي الليل شاء الصائم إلى أن يتبين ضياء الصبح من سواد الليل، وعبر عن ذلك بالخيط الأبيض من الخيط الأسود، ورفع اللبس بقوله: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾. وفي إيابته

تعالى جواز الأكل إلى طلوع الفجر دليل على استحباب السحور، لأنه من باب الرخصة والأخذ بها محبوب، وفي الحديث «تسحروا فإن في السحور بركة» ﴿وَلَا تَبْشُرُوا فِيهَا﴾ . . . أي لا تقربوهن ما دتم عاكفين في المسجد ولا في غيره. وفي ذكره تعالى الاعتكاف بعد الصيام إرشاد وتبنيه على الاعتكاف في الصيام أو في آخر شهر الصيام، فقد ثبت أنه ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان حتى توفاه الله عز وجل، ثم اعتكف أزواجه من بعده ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي يعرفون كيف يهتدون، وكيف يطيعون.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١٨٨).

نزلت في الرجل يكون عليه مال، وليس عليه فيه بيعة، فيجحد المال، ويخاصم إلى الحكام، وهو يعرف أن الحق عليه، وهو يعلم أنه آثم، أكل للحرام. وفي الحديث «إنما أنا بشر، وإنما يأتيني الخصم، فلعل بعضهم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من نار، فليحملها أو ليذرها» فدللت هذه الآية، وهذا الحديث على أن حكم الحاكم لا يغير الشيء في نفس الأمر، فلا يحل في نفس الأمر حراماً هو حرام، ولا يحرم حلالاً هو حلال، وإنما هو ملزم في الظاهر، فإن طابق في نفس الأمر فذاك، وإلا فللحاكم أجره، وعلى المحتال وزره. وقوله تعالى ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي تعلمون بطلان ما تدعونه وترجونه في كلامكم.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٨٩).

سأل الناس رسول الله عن الأهلة فنزلت هذه الآية يعلمون بها حل دينهم، وعدة نسائهم ووقت حجهم، وجعلها الله مواقيت لصوم المسلمين وإفطارهم، وفي الحديث «جعل الله الأهلة مواقيت للناس، فصوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته، فإن غم عليكم فأتوا ثلاثين يوماً». وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ . . . كانوا في الجاهلية إذا أحرموا أتوا البيت من ظهره، وكانت الأنصار إذا قدموا من سفره لم يدخل الرجل من قبل بابه، وكانت قريش تدعى الحمس، وكانوا يدخلون من الأبواب في الإحرام، وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب في الإحرام، فبينما رسول الله ﷺ في بستان إذا خرج من بابه، وخرج معه قطبة بن عامر من الأنصار فقالوا: يا رسول الله: إن قطبة بن عامر رجل تاجر، وإنه خرج معك من الباب، فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: رأيتك فعلته ففعلت كما فعلت، فقال: إني أحمس، قال له: فإن ديني دينك. وكان أقوام في الجاهلية إذا أراد أحدهم سفراً، وخرج من بيته يريد سفره الذي خرج له، ثم

رجلان في فتنه ابن الزبير فقالا: إن الناس ضيعوا، وأنت ابن عمر، وصاحب النبي ﷺ. فما يمنعك أن تخرج؟ فقال: ينعني أن الله حرم دم أخي، قال: ألم يقل الله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؟ فقال: قاتلنا حتى لم تكن فتنه، وكان الدين لله! وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنه، وحتى يكون الدين لغير الله.

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾.

لما سار رسول الله ﷺ معتمراً في سنة ست من الهجرة وحسبه المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت، وصدوه بمن معه من المسلمين، وأقصه الله منهم فنزلت هذه الآية، فلم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام إلا أن يغزى، ولهذا لما بلغه وهو مخيم في الحديبية أن عثمان قتل، وكان قد بعثه في رسالة إلى المشركين بايع أصحابه، وكانوا ألفاً وأربعمائة تحت الشجرة على قتال المشركين، فلما بلغه أن عثمان لم يقتل كف عن ذلك، وجنح إلى المسالمة والمصالحة، فكان ما كان. وقوله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ...﴾ أمر لهم بطاعة الله وتقواه، وإخبار بأنه تعالى مع الذين اتقوا بلنصر والتأييد في الدنيا والآخرة.

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾.

قال أبو عمران: حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقة، ومعنا أبو أيوب الأنصاري، فقال ناس: ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: نحن أعلم بهذه الآية، إنما نزلت فينا: صحبنا رسول الله ﷺ، وشهدنا معه المشاهد، ونصرناه، فلما فشا الإسلام وكثر أهله، وكنا قد آثرناه على الأهلين والأموال والأولاد، وقد وضعت الحرب أوزارها فخرجنا إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيهما فنزل فينا ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ فكانت التهلكة في الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد. رواه أبو داود والترمذي والنسائي. ومضمون الآية الأمر بالإنفاق في سبيل الله في سائر وجوه القربات، ووجوه الطاعات، وخاصة صرف الأموال في قتال الأعداء، وبذلها فيما يقوى به المسلمون على عدوهم والاحبار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك ودمار لمن لزمه واعتاده، ثم عطف بالأمر بالإحسان، وهو أعلى مقامات الطاعة فقال ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَأَيُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِفُوا بِهِ وَسَكَرٌ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَعَىٰ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾.

لما ذكر الله أحكام الصيام، وعطف بذكر الجهاد شرع في بيان المناسك، فأمر بإتمام الحج والعمرة، وظاهر السياق إكمال أفعالهما بعد الشروع فيهما، ولهذا قال بعده: ﴿فَإِنْ أُحْضِرْتُمْ﴾ أي صدقتم عن الوصول إلى البيت، ومنعتم من إتمامهما. ولهذا اتفق العلماء على أن الشروع في الحج والعمرة ملزم: سواء قيل: بوجوب العمرة أو باستحبابها، كما هما قولان للعلماء، وقيل: إتمامهما أن تحرم بهما من ديرة أهلك، وقيل: أن تفرد كل واحد منهما من الآخر، وأن تعتمر في غير أشهر الحج. ﴿فَإِنْ أُحْضِرْتُمْ﴾ فإن حيل بينكم وبين الوصول إلى البيت وهل يختص الإحصار بالعدو، أو هو أعم من أن يكون بعدو أو مرض، أو ضلال، وهو التوهان عن الطريق، أو نحو ذلك. قولان في ذلك. ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ من الإبل والبقر والغنم. ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ هذا في حال الأمن، فإنه لا يحلق حتى يصل إلى الحرم، أما في حال الإحصار فيحلق حيث أحصر، لأن النبي وأصحابه لما أحصروا عام الحديبية حلقوا وذبحوا هديهم خارج الحرم. ﴿فَن كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا...﴾ يقول كعب بن عجرة: حملت إلى النبي ﷺ والقمل يتناثر على وجهي فقال: «ما كنت أرى الجهد يبلغ منك هذا، أما تجد شاة» قلت: لا، قال: «صم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع من طعام، واحلق رأسك» فنزلت في خاصة، وهي لكم عامة. ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ...﴾ أي فإذا تمكنتم فيه من أداء المناسك فمن كان منكم متمتعاً بالعمرة إلى الحج، وهو يشمل من أحرم بهما، أو أحرم بالعمرة أولاً، فلما فرغ منها أمر بالحج فليذبح ما قدر عليه من الهدى، وأقله شاة، وله أن يذبح البقر. ﴿فَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ...﴾ أي في أيام المناسك، والأفضل قبل يوم عرفة في العشرة، وسبعة إذا رجع إلى رحله، أو إلى وطنه. ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ قيل: تأكيد مثل ﴿وَلَا طَلِيئٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: 38] وقوله: ﴿ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ...﴾ هم أهل الحزم أو هم أهل الحرم ومن بينه وبين المواقيت، أو هم أهل الحرم ومن كان منه على مسافة لا تقصر فيها الصلاة، لأن من كان كذلك كان حاضراً لا مسافراً.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما أمركم ونهاكم ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي لمن خالف أمره، وارتكب ما عنه زجر.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ حَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَكَرَّوْهُمَا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١٩٧).

القول بصحة الإحرام بالحج في جميع السنة مذهب مالك وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل، وذهب الشافعي إلى أنه لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره، فلو أحرم به قبلها لم ينعقد إحرامه به، وهل يعقد عمرة؟ فيه قولان عنه، وفي الحديث «لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحج إلا في أشهر الحج»، وهو حجة للشافعي رحمه الله. ﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ﴾ سؤال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة.

﴿فَمَنْ رَمَى فِيهِمْ الْحَجَّ﴾ أي أوجب بإحرامه حجاً، وفيه دلالة على لزوم الإحرام بالحج والمضي فيه. ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ أي من أحرم بالحج أو العمرة فليجتنب الرفث، وهو الجماع، كما قال تعالى: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَاكِرِ الرَّفَثِ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾، وكذلك يحرم تعاطي دواعيه من المباشرة والتقبيل ونحو ذلك، وكذلك التكلم به بحضرة النساء. ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ هو ما أصيب من معاصي الله صيداً أو غيره، أو هو السباب، وقد يتمسك لهذا بما ثبت في الصحيح: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ ولا مجادلة في وقت الحج في مناسكه، وقد بينه الله أتم بيان ووضحه أكمل إيضاح، أو أن المراد بالجدال المخاصمة، وفي الحديث «من قضى نسكه وسلم المسلمون من لسانه ويده غفر له ما تقدم من ذنبه». ﴿وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَكْتُمُهُ اللَّهُ﴾ لما نهاهم عن إتيان القبيح قولاً وفعلًا حثهم على فعل الجميل، وأخبرهم أنه عالم به، وسيجزئهم عليه أوفر الجزاء يوم القيامة. ﴿وَتَكَرَّرُوا﴾ كان ناس يخرجون من أهلهم ليست معهم أزودة، يقولون: نحج ولا يطعمنا؟ فقال الله: تزودوا ما يكف وجوهكم عن الناس. ﴿فَاتَّخَذَ خَيْرَ أَزْوَاجٍ الْقَوِيُّ﴾ لما أمرهم بالزاد للسفر في الدنيا أرشدهم إلى زاد الآخرة، وهو استصحاب التقوى إليها. ﴿وَأَتَّقُوا يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ يقول: واتقوا عقابي ونكالي وعذابي لمن خالفني، ولم ياتمر بأمري يا ذوي العقول والأفهام.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الصَّالِحِينَ﴾ (١٩٨).

كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية، فتأثموا أن يتجروا في الموسم فنزلت، أي في موسم الحج. وعرفة موضع الوقوف في الحج، وهي عمدة أفعال الحج، وفي الحديث: «الحج عرفات - ثلاثاً - فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك، وأيام منى ثلاثة، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه» ووقت الوقوف من الزوال يوم عرفة إلى طلوع الفجر الثاني من يوم النحر. ﴿فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ هي جمع الصلاتين جميعاً، والمشعر الحرام: المزدلفة كلها، وفي الحديث «كل عرفات موقف، وارفعوا عن عرفات، وكل مزدلفة موقف، وارفعوا عن بطن محسر، وكل فجاج مكة منحر، وكل أيام التشريق ذبح» والوقوف بمزدلفة واجب، وهو أحد قولي الشافعي، يجبر بدم، أو مستحب لا يجب بتركه شيء كما هو القول الآخر. ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ﴾ تنبيه لهم على ما أنعم الله به عليهم من الهداية والبيان والإرشاد إلى مشاعر الحج. ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ من قبل هذا الهدى، وقبل القرآن والرسول.

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَأَسْتَقْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٩٩).

عن عائشة كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يسمون الحمس، وسائر العرب

يقفون بعرفات، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات، ثم يقف بها، ثم يفيض منها. ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ...﴾ كثيراً ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات، ولهذا ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر الله ثلاثاً.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّكَاثِينَ مَن يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَنَا فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ﴾ ﴿٢١٣﴾ .
 يأمر تعالى بذكره والإكثار منه بعد قضاء المناسك وفراغها. ﴿كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ اختلفوا في معناه فقيل: كما يلهج الصبي بذكر أبيه وأمه، فكذلك أنتم فالهجو بذكر الله بعد قضاء المناسك، وقيل: كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم فيقول الرجل فيهم: كان أبي يطعم، ويحمل الحملات، ويحمل الديات، ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم فأنزل الله هذه الآية، والمقصود منه الحث على كثرة ذكر الله عز وجل. ﴿مِن خَلْقٍ﴾ أي من نصيب ولا حظ، وتضمن هذا الظم والتنفير عن التشبه بمن كان كذلك، فقد كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف فيقولون: اللهم اجعله عام غيث، وعام خصب، وعام ولاد حسن، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً.

﴿وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ﴿٢١٤﴾ .

جمعت هذه الدعوة كل خير في الدنيا، وصرفت كل شر، فإن الحسنه في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوي من عافية ودار مرحبة، وزوجة حسنة ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هين، وثناء جميل إلى غير ذلك، وأما الحسنه في الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات، وتيسير الحساب، وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة، وأما النجاة من النار فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا من اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ﴿٢١٥﴾ .

جاء رجل إلى ابن عباس فقال: إني أجرت نفسي من قوم على أن يحملوني، ووضعت لهم من أجرتي على أن يدعوني أحج معهم، أفيجزي ذلك؟ فقال: أنت من الذين قال الله ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا...﴾ .

﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لَبِنَ أُنْقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنكُمُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ﴿٢١٦﴾ .

الأيام المعدودات أيام التشريق، أربعة أيام، يوم النحر وثلاثة بعده، والأيام المعلومات أيام العشر. والمراد التكبير في أيام التشريق بعد الصلوات المكتوبات: الله أكبر الله أكبر، وفي الحديث «يوم

عرفة، ويوم النحر، وأيام التشريق عيدنا أهل الإسلام، وهي أيام أكل وشرب». ويتعلق بقوله ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ ذكر الله على الأضاحي. ومذهب الشافعي وهو الراجح أن وقت الأضحية من يوم النحر إلى آخر أيام التشريق، ويتعلق به أيضاً الذكر المؤقت خلف الصلوات، والمطلق في سائر الأحوال.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ (٢٤).

نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي، جاء إلى رسول الله ﷺ، وأظهر الإسلام، وفي باطنه خلاف ذلك، وقيل: نزلت في نفر من المنافقين تكلموا في خييب وأصحابه الذين قتلوا بالرجيع، وعابوهم فأنزل الله في ذم المنافقين، ومدح خييب وأصحابه ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْغَاتٍ اللَّهِ﴾، وقيل: بل ذلك عام في المنافقين كلهم، وفي المؤمنين كلهم. وفي بعض الكتب «أن عباداً ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمر من الصبر، لبسوا للناس مسوك الضأن من اللين، يجتروون الدنيا بالدين، قال تعالى: «عليّ تجترئون، وبني تعترون؟ وعزتي لأبعثن عليهم فتنة تترك الحليم منهم حيران» ﴿وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ﴾ ومعناه أنه يظهر للناس الإسلام، ويبارز الله بما في قلبه من الكفر والنفاق كقوله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَّا وَمِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَّا﴾ [النساء: 108]. الألد في اللغة الأعوج ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا﴾ [مريم: 97] أي عوجاً، وهكذا المنافق في حال خصومته يكذب ويزور عن الحق، ولا يستقيم معه، بل يفترى ويفجر، كما في الصحيحين «آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر». وفي الحديث أيضاً «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم».

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ (٢٥).

أي هو أعوج المقال، سعى الفعال، فذلك قوله، وهذا فعله، كلامه كذب، واعتقاده فاسد، وأفعاله قبيحة، والسعي هنا هو القصد كقوله تعالى ﴿فَأَسْعُوا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: 9] أي اقصدا واعمدوا ناوين بذلك صلاة الجمعة، فإن السعي الحسي إلى الصلاة منهي عنه بالسنة النبوية «إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وعليكم السكينة والوقار» فهذا المنافق ليس له همة إلا الفساد في الأرض، وإهلاك الحرث، وهو محل نماء الزروع والثمار، والنسل، وهو نتاج الحيوانات الذين لا قوام للناس إلا بهما. ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ أي لا يحب من هذه صفته، ولا من يصدر منه ذلك.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ الْإِمْهَادُ﴾ (٢٦).

أي إذا وعظ هذا الفاجر في مقاله وفعاله، قيل له: اتق الله وانزع عن قولك وفعلك وارجع إلى

الحق امتنع وأبى وأخذته الحمية والغضب بالإثم أي بسبب ما اشتمل عليه من الآثام. ﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ...﴾ أي هي كافيته عقوبة في ذلك.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٢٠٧).

لما أخبر عن المنافقين بصفاتهم الذميمة ذكر صفات المؤمنين الحميدة، نزلت في صهيب الرومي، وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة منعه الناس أن يهاجر بماله فتخلص منهم وأعطاهم ماله، فتلقاه: عمر بن الخطاب وجماعة إلى أطراف الحرة، فقالوا: ربح البيع. فقال: وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم، وما ذاك فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية. والأكثرون حملوا ذلك على أنها نزلت في كل مجاهد في سبيل الله.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْخُلُوا فِي السِّلْرِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (٢٠٨).

يقول الله تعالى أمراً المؤمنين به المصدقين برسوله أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك. ﴿فِي السِّلْرِ﴾ يعني الإسلام، أو الطاعة، أو الموادة، أو بجميع الأعمال ووجوه البر، والمعنى ادخلوا في شرائع دين محمد ﷺ، ولا تدعوا منها شيئاً، أو ادخلوا في الإسلام كلكم. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ اعملوا بالطاعات، واجتنبوا ما يأمركم به الشيطان، فهو ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢٠٩) ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ قال مطرف: «أغش عباد الله لعبيد الله الشيطان».

﴿فَإِن زَلَلْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٠٩).

أي فإن عدلتم عن الحق بعدما قامت عليكم الحجج فاعلموا أن الله عزيز في انتقامه، لا يفوته هارب، ولا يغلبه غالب، حكيم في أحكامه، ونقضه وإبرامه.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٢١٠).

يعني يوم القيامة لفصل القضاء بين الأولين والآخرين، فيجزى كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ولهذا قال: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (٢١) وجاءت يومئذ يومئذ يومئذ يذكروا الإنسان وأنى له الذكروا (٢٢) [الفجر: 21، 23] وفي الحديث: «يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياماً شاحصة أبصارهم إلى السماء، ينتظرون فصل القضاء، وينزل الله في ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسي».

﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِّنْ آيَاتِنَا بَيْنَهُ وَمَن يَبْدُلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْهُ بَعْدَ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن بني إسرائيل: كم شاهدوا مع موسى من آية بينة، أي حجة قاطعة بصدقه فيما جاءهم به، كيده وعصاه وقلقه البحر وضربه الحجر، وما كان من تظليل الغمام عليهم في شدة الحر، ومن إنزال المن والسلوى وغير ذلك من الآيات الدالات على وجود الفاعل المختار، وصدق من جرت هذه الخوارق على يديه، ومع هذا أعرض كثير منهم عنها، وبدلوا نعمة الله كفراً، أي استبدلوا بالإيمان بها الكفر بها والإعراض عنها، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢١٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَيَنَسُّوا الْقَرَارَ ﴿٢١٩﴾﴾ [إبراهيم: 28، 29].

﴿زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَسَخَّرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٦﴾﴾ .

ثم أخبر تعالى عن تزيينه الحياة الدنيا للكافرين الذين رضوا بها واطمأنوا إليها، وجمعوا الأموال ومنعوا عن مصارفها التي أمروا بها مما يرضي الله عنهم، وسخروا من الذين أعرضوا عنها، وأنفقوا ما حصل لهم منها في طاعة ربهم، وبدلوه ابتغاء وجه الله، فلهذا فازوا بالمقام الأسعد، والحظ الأوفر يوم معادهم، فكانوا فوق أولئك في محشرهم ومنشرهم، ومسيرهم ومأواهم، فاستقروا في الدرجات في أعلى عِلين، وخلد أولئك في الدركات في أسفل سافلين، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي يرزق من يشاء من خلقه، ويعطيه عطاء كثيراً جزئياً بلا حصر ولا تعداد في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبا: 39] وفي الحديث الصحيح «أن ملكين ينزلان من السماء صبيحة كل يوم، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً».

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ .

كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين. ﴿وَمِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي من بعد ما قامت الحجج عليهم، وما حملهم على ذلك إلا البغي من بعضهم على بعض. ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾ في الحديث «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، نحن أول الناس دخولاً الجنة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتينا من بعدهم، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه - الجمعة -، فهدانا

الله له، فالناس لنا فيه تبع، فقدأ لليهود، وبعد غد للنصارى. ﴿يَاذِينَ﴾ أي يعلمه بهم، وبما هداهم له. وفي الحديث عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلي، يقول: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق يا ذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم» وفي الدعاء المأثور «اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، ولا تجعله ملتبساً علينا فنفضل، واجعلنا للمتقين إماماً.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَائِدِ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ءَلَا إِن نَّصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ .

يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ قبل أن تبتلوا وتختبروا وتمتحنوا، كما فعل بالذين من قبلكم من الأمم، أصابتهم الأمراض والأسقام والآلام والمصائب والنواب، ﴿وَزُلْزَلُوا﴾ أي خوفوا من الأعداء زلزلاً شديداً، وامتحنوا امتحاناً عظيماً، كما جاء في الحديث الصحيح عن خباب بن الأرت قال: قلنا: يا رسول الله، ألا تستنصر لنا، ألا تدعوا الله لنا؟ فقال: «إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه فيخلص إلى قدميه، لا يصرفه ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه، لا يصرفه ذلك عن دينه» ثم قال: «والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم قوم تستعجلون».

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَأَمَّنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: 1 - 3] وقد حصل من هذا شيء عظيم للصحابة رضي الله عنهم في يوم الأحزاب، كما قال تعالى: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ [الاحزاب: 10، 11]. ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي سنتهم.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّهِ وَاللَّذِينَ فِي الْأَقْرَابِ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَنْ بِنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ .

قال مقاتل بن حيان: هذه الآية في نفقة التطوع، وقال السدي: نسختها الزكاة، وفيه نظر. ومعنى الآية: يسألونك كيف ينفقون؟ فبين الله لهم أن ينفقوا في هذه الوجوه، كما جاء في الحديث «أمك وأباك، وأختك وأخاك، ثم أدناك فأدناك». وتلا ميمون هذه الآية، ثم قال: هذه مواضع النفقة، ما ذكر طيبلاً ولا مزماراً، ولا تصاوير الخشب ولا كسوة الحيطان، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ أي مهما صدر منكم من فعل معروف فإن الله يعلمه، وسيجزئكم على ذلك أوفر الجزاء، فإنه لا يظلم أحداً مثقال ذرة.

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١١١) .

هذا إيجاب من الله تعالى للجهاد على المسلمين أن يكفوا شر الأعداء عن حوزة الإسلام، وقال الزهري: الجهاد واجب على كل أحد، غزا أو قعد، فالقاعد عليه إذا استعين أن يعين، وإذا استغيث أن يغيث، وإذا استنفر أن ينفر، وإن لم يحتج إليه قعد، ولهذا ثبت في الصحيح «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات ميتة جاهلية». وقال عليه السلام: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا» ﴿ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ﴾ أي شديد عليكم، ومشقة، وهو كذلك، فإنه إما أن يقتل، أو يجرح مع مشقة السفر، ومجالدة الأعداء. ﴿ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا... ﴾ أي لأن القتال يعقبه النصر، والظفر على الأعداء والاستيلاء على بلادهم وأموالهم وذرائعهم وأولادهم. ﴿ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا... ﴾ وهذا عام في الأمور كلها، قد يحب المرء شيئاً وليس فيه خيرة ولا مصلحة، ومن ذلك القعود عن القتال قد يعقبه استيلاء العدو على البلاد والحكم. ﴿ وَاللَّهُ يَسْمُرُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي هو أعلم بعواقب الأمور منكم، وأخبر بما فيه صلاحكم في دنياكم وأخراكم، فاستجيبوا له، وانقادوا لأمره، لعلكم ترشدون.

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَالُونَ لَكُمْ حَتَّىٰ يَرْدُوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْطَلُّوهُ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١١٧) .

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رهطاً عليهم عبد الله بن جحش، وكتب له كتاباً، وأمره أن لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا، وقال: «لا تكرهن أحداً على السير معك من أصحابك» فلما قرأ الكتاب استرجع وقال: سمعاً وطاعة لله ولرسوله فخيرهم الخبر وقرأ عليهم الكتاب، فرجع رجالان، وبقي بقيتهم، فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه، ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب، أو من جمادى فقال المشركون للمسلمين: قتلتم في الشهر الحرام فأنزل الله ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ... ﴾ أي إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام، فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به، وعن المسجد الحرام، وإخراجكم منه وأنتم أهله ﴿ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ من قتل من قتلتم منهم. ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ أي قد كانوا يفتنون المسلم في دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه، فذلك أكبر عند الله من القتل. ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَالُونَ لَكُمْ... ﴾ أي ثم هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه غير تائبين ولا نازعين.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١١٨) .

كانوا رضي الله عنهم يطعمون أن تكون لهم غزوة يعطون فيها أجر المجاهدين فأنزل الله هذه الآية فوضع الله من ذلك على أعظم الرجاء .

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٦٩)

عن عمر أنه قال : لما نزل تحريم الخمر قال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت هذه الآية التي في البقرة ، فدعي عمر فقرأت عليه فقال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت الآية التي في النساء ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ . . .﴾ [النساء: 43] فكان منادي رسول الله إذا أقام الصلاة نادى أن لا يقربن الصلاة سكران فدعي عمر فقرأت عليه فقال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت الآية التي في المائدة ، فدعي عمر فقرأت عليه ، فلما بلغ ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: 91] قال عمر : انتهينا . قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : «كل ما خامر العقل فهو خمر ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ﴾ أما إثمهما فهو في الدين ، وأما المنافع فدينية من حيث أن فيها نفع البدن ، وتهضيم الطعام ، وإخراج الفضلات ، وتشحيد بعض الأذهان ، ولذة الشدة المطربة التي فيها ، وكذا بيعها والانتفاع بثمنها ، وما كان يفحشه بعضهم من الميسر فينفعه على نفسه أو عياله ، ولكن هذه المصالح لا توازي مضرتة ومفسدته الراجحة لتعلقها بالعقل والدين ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ ولهذا كانت الآية ممهدة لتحريم الخمر على الثبات ، ولم تكن مصرحة بل معرضة . ﴿قُلِ الْغَفْوُ﴾ يعني الفضل ، أو ما يفضل عن أهلك . عن أبي هريرة قال : قال رجل : يا رسول الله ، عندي دينار ، قال : «أنفقه على نفسك» قال : عندي آخر ، قال : «أنفقه على أهلك» ، قال : عندي آخر ، قال : «أنفقه على ولدك» قال : عندي آخر ، قال فأنت أبصر . وفي الحديث : «خير الصدقة ما كان على ظهر غنى ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول» . ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ . . .﴾ أي كما فصل لكم هذه الأحكام وبينها وأوضحها كذلك يبين لكم سائر الآيات في أحكامه ووعيده لعلكم تتفكرون .

﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الِئْتِمَانِ قُلْ إِصْلَاحٌ لِّمَنْ حَيَّرَ وَإِن تُخَاطَبُوا فِيمَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢١٠)

قرأ الحسن هذه الآية من البقرة ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ فقال : هي والله لمن تفكر فيها ، ليعلم أن الدنيا دار بلاء ، ثم دار فناء ، وليعلم أن الآخرة دار جزاء ، ثم دار بقاء . ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الِئْتِمَانِ قُلْ . . .﴾ لما نزلت ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: 152] ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الِئْتِمَانِ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا﴾ [النساء: 10] انطلق من

كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فجعل يفضل له الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿وَيَسْتَلُونَكَ عَنِ الْيَتِيمِ...﴾ فخلطوا طعامهم بطعامهم، وشرابهم بشرابهم، قالت عائشة: إني لأكره أن يكون مال اليتيم عندي على حدة حتى أخلط طعامي بطعامه، وشرابه بشرابي. فقوله: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ أي على حدة. ﴿وَإِنْ تَخَالَطُوهُمْ فَلَا تَحْزَنُوا لَهُمْ﴾ أي وإن خلطتم طعامكم بطعامهم، وشرابكم بشرابهم فلا بأس عليكم، لأنهم إخوانكم في الدين، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ أي يعلم من قصده الإفساد، أو الإصلاح. وقوله ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ...﴾ أي ولو شاء الله لضيق عليكم وأحرجكم، ولكنه وسع عليكم، وخفف عنكم، وأباح لكم مخالطتهم بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الانعام: 152] بل جوز الأكل منه للفقير بالمعروف، إما بشرط ضمان البدل لمن أيسر، أو مجاناً.

﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى تُؤْمِنَ وَلَا أُمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى أَرْضِهِ الْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

هذا تحريم من الله عز وجل على المؤمنين أن يتزوجوا المشركات من عبدة الأوثان، ثم إن كان عمومها مراداً فقد خص من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ﴾ [المائدة: 5] وقيل: بل المراد بذلك المشركون من عبدة الأوثان، ولم يرد أهل الكتاب بالكلية. ﴿وَلَا أُمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ...﴾ نزلت في عبد الله بن رواحة، كانت له أمة سوداء، فغضب عليها فلطمها، ثم فرغ فأتى رسول الله فأخبره خبرهما، فقال له «ما هي؟» قال: تصوم وتصلني، وتحسن الوضوء، وتشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله، فقال: «يا أبا عبد الله هذه مؤمنة» فقال: والذي بعثك بالحق لأعتقنها ولأتزوجنها، ففعل فطعن عليه ناس من المسلمين، وقالوا: نكح أمته، وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين، وينكحوهم رغبة في أحسابهم. وفي الحديث «لا تنكحوا النساء لحسنهن، فعسى حسنهن أن يرديهن، ولا تنكحوهن على أموالهن، فعسى أموالهن أن تطغيهن، وانكحوهن على الدين، فلا أمة سوداء جرداء ذات دين أفضل». وفي الحديث: «الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة». ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أي معاشرتهم ومخالطتهم، تبعث على حب الدنيا واقتنائها وإيثارها على الدار الآخرة، وعاقبة ذلك وخيمة - ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى أَرْضِهِ الْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ أي بشرعه وما أمر به وما نهى عنه.

﴿وَيَسْتَلُونَكَ عَنِ الْمَجِيضِ قُلْ هُوَ أَدْنَىٰ فَاغْتَرَلُوا الْبِسَاءَ فِي الْمَجِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾.

عن أنس أن اليهود كانت إذا حاضت المرأة منهم لم يواكلوها، ولم يجامعوها في البيوت - أي لم يجتمعوا بها في بيت واحد - فسأل أصحاب النبي ﷺ فأُنزل الله هذه الآية، ثم قال: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح» فبلغ ذلك اليهود، فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه، فجاء أسيد بن حضير، وعباد بن بشر، فقالا يا رسول الله، إن اليهود قالت: كذا وكذا، أفلا نجامعن؟ فتغير وجه رسول الله حتى ظننا أن قد وجد عليهما، فخرجا فاستقبلهما هدية من لبن إلى رسول الله ﷺ فأرسل في آثارهما فسقاها فخرقا أن لم يجد عليهما. وللعلماء قولان فيما يحل للرجل من زوجته الحائض، فقول له منها كل شيء إلا الوطء، وقول له منها ما فوق الإزار. ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْتَ فَأَتُوهُنَّ﴾ فيه ندب إلى غشيانهن بعد الاغتسال ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ يعني في الفرج، ولا تعدوه إلى غيره، فمن فعل شيئاً من ذلك فقد اعتدى، وفيه دلالة على تحريم الوطء في الدبر. ﴿التَّوْبَتَيْنِ﴾ من الذنب وإن تكرر غشيانه. ﴿التَّطَهَّرِينَ﴾ أي المنزهين عن الأقدار والأذى، وهو ما نهوا عنه من إتيان الحائض، أو غير المأني.

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْي شِئْتُمْ وَقَدِمُوا أَنْفُسِكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوَةٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١١).

قال ابن عباس: الحرث موضع الولد. ﴿أَنْي شِئْتُمْ﴾ أي كيف شئتم مقبلة ومدبرة في صمام واحد كما ثبتت بذلك الأحاديث، عن جابر قال: كانت اليهود تقول: إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول فنزلت. وفي الحديث «حرثك، ائت حرثك أني شئت» وفي حديث آخر: «مقبلة ومدبرة إذا كان ذلك في الفرج» والأحاديث كثيرة في النهي عن تجاوز موضع الحرث منها «سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم ويقول: ادخلوا النار مع الداخلين: الفاعل والمفعول به، والناكح يده، وناكح البهيمة، وناكح المرأة في دبرها، وجامع بين المرأة وابتتها، والزاني بحليلة جاره، ومؤذي جاره حتى يلعنه» ومنها «نهى رسول الله ﷺ أن تؤتى النساء في أدبارهن فإن الله لا يستحي من الحق» ومنها «لا ينظر الله إلى رجل جامع امرأته في دبرها»، ومنها «ملعون من أتى امرأته في دبرها» ومنها «استحيوا من الله حق الحياء، ولا تأتوا النساء في أدبارهن» ومنها «من أتى شيئاً من الرجال والنساء في الأدبار فقد كفر» وسأل رجل علياً عن إتيان المرأة في دبرها، فقال: سفلت سفل الله بك، ألم تسمع قول الله عز وجل: ﴿أَتَأْتُونَ النَّحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 180]. وقوله: ﴿وَقَدِمُوا أَنْفُسِكُمْ﴾ أي من فعل الطاعات مع امتثال ما أنهاكم عنه من ترك المحرمات، ولهذا قال: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوَةٌ﴾ أي فيحاسبكم على أعمالكم جميعها ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي المطيعين لله فيما أمرهم، التاركين ما عنه زجرهم. ﴿وَقَدِمُوا أَنْفُسِكُمْ﴾ تقول باسم الله، التسمية عند الجماع، وفي الحديث «لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: باسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد لم يضره الشيطان أبداً».

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٢٤).

يقول الله تعالى: لا تجعلوا أيمانكم بالله تعالى مانعة لكم من البر وصلة الرحم إذا حلفتكم على تركها، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النور: 22] فالاستمرار على اليمين إثم لصاحبها من الخروج منها بالتكفير، وفي الحديث «ومن حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليدعها وليأت الذي هو خير، فإن تركها كفراتها».

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (٢٢٥).
أي لا يعاقبكم ولا يلزمكم بما صدر منكم من الأيمان اللاغية، وهي التي لا يقصدها الحالف، بل تجري على لسانه عادة من غير تعقيد ولا تأكيد. وفي الحديث «اللغو في اليمين هو كلام الرجل في بيته كلا والله، وبلى والله».

﴿لِلَّذِينَ يُؤُولُونَ مِنْ نِسَابِهِمْ رَبُّضٌ أَرْبَعَةٌ أَشْهُرٌ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٢٦).
الايلاء الحلف، فإذا حلف الرجل أن لا يجامع زوجته مدة، فلا يخلو إما أن يكون أقل من أربعة أشهر، أو أكثر منها، فإن كانت أقل فله أن ينتظر انقضاء المدة ثم يجامع امرأته، وعليها أن تصبر، وليس لها مطالبته بالفَيْثَة في هذه المدة، فإن زادت المدة على أربعة أشهر فللزوجة مطالبة الزوج عند انقضاء أربعة أشهر، إما أن يفيء أي يجامع، وإما أن يطلق، فيجبره الحاكم على هذا لئلا يضر بها.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٢٧).
فيه دلالة على أن الطلاق لا يقع بمجرد أربعة أشهر. وذهب آخرون إلى أنه يقع بمضي أربعة أشهر تطلقة.

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيُعَوِّلُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٢٨).

هذا أمر من الله سبحانه للمطلقات المدخول بهن من ذوات الأقراء بأن يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء، ثم تتزوج إن شاءت. والمراد بالأقراء الأطهار، أو الحيض، فلا تنقضي المدة حتى تطهر من الحيضة الثالثة. ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ من حبل، أو حيض. في قوله ﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ...﴾ تهديد لهن على خلاف الحق، ودل هذا على أن المرجع في هذا إليهن لأنه أمر لا يعلم إلا من جهتهن، ويتعذر إقامة البينة غالباً على ذلك. ﴿وَيُعَوِّلُهُنَّ أَحَقُّ...﴾ أي وزوجها الذي طلقها أحق بردها ما دامت في عدتها إذا كان مراده بردها الإصلاح والخير، وهذا في الرجعات فأما المطلقات البوائن

فلم يكن حال نزول هذه الآية مطلقة بائن، وإنما كان ذلك لما حصروا في الطلاق الثلاث، فأما حال نزول الآية فكان الرجل أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة، فلما قصرُوا في الآية التي بعدها على ثلاث تطليقات صار للناس مطلقة بائن وغير بائن.

وقوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي...﴾ أي ولهن ما على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن، فليؤد كل واحد منهما إلى الآخر ما يجب عليه بالمعروف. ﴿وَالرِّجَالُ عَلَيْهِمْ ذَرْعٌ﴾ أي في الفضيلة في الخلق والخلق والمنزلة وطاعة الأمر والانفاق والقيام بالمصالح والفضل في الدنيا والآخرة. ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي عزيز في انتقامه ممن عصاه، وخالف أمره، حكيم في أمره وشرعه وقدره.

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُفْسِدَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُفِيَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

هذه الآية الكريمة رافعة لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام من أن الرجل كان أحق برجعة امرأته، وإن طلقها مائة مرة ما دامت في العدة، فلما كان هذا فيه ضرر على الزوجات قصرهم الله إلى ثلاث طلاقات، وأباح الرجعة في المرة والثنتين، وأبانها بالكلية في الثالثة، فإذا طلق الرجل زوجته واحدة أو اثنتين فهو مخير فيها ما دامت عدتها باقية بين أن يردها إليه ناوياً الاصلاح بها، والإحسان إليها، وبين أن يتركها حتى تنقضي عدتها فبين منه، ويطلق سراحها محسناً إليها، لا يظلمها من حقها شيئاً، ولا يضارها. وقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ...﴾ أي لا يحل لكم أن تضاجروهن وتضيقوا عليهن ليفتدين منكم بما أعطيتموهن من الأصدقة أو ببعضه كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْضُوا لَهُنَّ إِنْ تَزَّوَجْتُمْ مِنْ بَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِغَشِيٍّ مُبِينٍ﴾ [النساء: 19] فأما إن وهبته المرأة شيئاً عن طيب نفس فقد قال تعالى: ﴿فَإِنْ طَبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَمَا فَكُّوهُ هَبْتًا مَرِيئًا﴾ [النساء: 4] وأما إذا تشاقق الزوجان ولم تقم المرأة بحقوق الرجل وأبغضته ولم تقدر على معاشرته فلها أن تفتدي منه بما أعطاها، ولا حرج عليها في بذلها له، ولا حرج عليه في قبول ذلك منها، فأما إذا لم يكن لها عذر وسألت الافتداء منه فإن رسول الله ﷺ قال: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلْتُ زَوْجَهَا طَلَاقَهَا فِي غَيْرِ مَا بَأْسٍ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ» وقالت طائفة كثيرة من السلف وأئمة الخلف: إنه لا يجوز الخلع إلا أن يكون الشقاق والنشوز من جانب المرأة فيجوز للرجل حينئذ قبول الفدية، وذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجوز الخلع في حال الشقاق وعند الاتفاق بطريق الأولى والأحرى وهذا قول جميع أصحابه قاطبة. كانت حبيبة بنت سهل تحت ثابت بن قيس بن شماس، وكان رجلاً دميماً، فقالت يا رسول الله، والله لولا مخافة الله إذا دخل عليّ بصقت في وجهه، فقال رسول الله ﷺ: «أتردين عليه حديقته؟» قالت: نعم، فردت عليه حديقته، قال: ففرق بينهما رسول الله ﷺ. وقد اختلف العلماء في أنه هل يجوز للرجل أن يفادياها بأكثر مما أعطاها، فذهب الجمهور إلى ذلك لعموم قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ

بِهِ» وقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ يَتَعَدَّ حُدُودَهُ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ﴾ أي هذه الشرائع التي شرعها لكم هي حدوده فلا تتجاوزوها في الحديث «إن الله حد حدوداً فلا تعتدوها، وفرض فرائض فلا تضيعوها، وحرم محارم فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لکم غير نسيان فلا تسألوا عنها».

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٢٢٣).

أي إذا طلق الرجل امرأته طلقة ثالثة بعدما أرسل عليها الطلاق مرتين فإنها تحرم عليه حتى تنكح زوجاً غيره، أي حتى يطأها زوج آخر في نكاح صحيح، فلو تزوجت، ولكن لم يدخل بها الزوج لم تحل للأول. عن عائشة قالت: دخلت امرأة رفاة القرظي وأنا وأبو بكر عند النبي ﷺ فقالت: إن رفاة طلقني البتة، وإن عبد الرحمن بن الزبير تزوجني، وإنما عنده مثل الهدية، وأخذت هدية من جلبابها، فما زاد رسول الله عن التيسم، فقال رسول الله ﷺ: «كأنك تريد أن ترجعي إلى رفاة، لا حتى تذوق عُسَيْلَتَهُ، وذوق عُسَيْلَتِكَ». والمقصود من الزوج الثاني أن يكون راغباً في المرأة قاصداً لدوام عسرتها كما هو المشروع من التزوج، فقد قال رسول الله «ألا أخبركم بالتيس المستعار؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «هو المحلل، لعن الله المحلل والمحلل له».

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَنْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْتَدُوهُنَّ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ بِعَظْمِ رَبِّهِ وَأَنْقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَكْفُلُ شَيْءٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٢٤).

هذا أمر من الله للرجال إذا طلق أحدهم المرأة طلاقاً له عليها فيه رجعة أن يحسن في أمرها إذا انقضت عدتها ولم يبق إلا مقدار ما يمكنه فيه رجعتها، فإما أن يرجعها إلى عصمة نكاحه بمعروف، وهو أن يشهد على رجعتها وينوي عسرتها بالمعروف، أو يسرحها أي يتركها حتى تنقضي عدتها ويخرجها من منزلها التي هي أحسن من غير شقاق ولا مخاصمة ولا تقابح. ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْتَدُوهُنَّ﴾ كان الرجل يطلق امرأته فإذا قاربت انقضاء عدتها راجعها ضارراً لثلاث تذهب إلى غيره، ثم يطلقها فتعتد، فإذا شارفت على انقضاء العدة طلق لتطول عليها العدة فنهاهم الله عن ذلك وتوعدهم عليه فقال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أي بمخالفته أمر الله تعالى ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ كان الرجل على عهد النبي ﷺ يقول للرجل: زوجتك ابنتي، ثم يقول: كنت لاعباً، ويقول: قد أعتقت، ويقول: كنت لاعباً، فأنزل الله هذه الآية، فقال رسول الله ﷺ: «ثلاث من قالهن لاعباً أو غير لاعب فهن جائزات عليه: الطلاق والعتاق والنكاح». ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي في إرساله الرسول بالهدى والبيانات إليكم. ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي السنة. ﴿بِعَظْمِ رَبِّهِ﴾ أي يأمركم وينهاكم ويتوعدكم على ارتكاب المحارم. ﴿وَأَنْقُوا اللَّهَ﴾ أي فيما تأتون وتذرون. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَكْفُلُ شَيْءٌ عَلِيمٌ﴾ أي فلا يخفى عليه شيء من أموركم السرية والجهرية وسيجازيكم على ذلك.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا أَجَلُهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَضُوا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ زَكَاةٌ لَكُمْ وَأَطْهَرٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ .

نزلت هذه الآية في الرجل يطلق امرأته طليقة أو طليقتين فتنقضى عدتها، ثم يبدو له أن يتزوجها، وأن يراجعها، وتريد المرأة ذلك فيمنعها أولياؤها من ذلك فنهى الله أن يمنعوها، عن معقل بن يسار أنه زوج أخته رجلاً من المسلمين على عهد رسول الله ﷺ، فكانت عنده ما كانت، ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت عدتها، فهويها وهويتها، ثم خطبها مع الخطاب، فقال له: يا لكع بن لكع، أكرمتك بها، وزوجتكها فطلقتها، والله لا ترجع إليها أبداً آخر ما عليك، قال: فعلم الله حاجته إليها، وحاجتها إلى بعلمها فأنزل الله هذه الآية. وفيها دلالة على أن المرأة لا تملك أن تزوج نفسها، وأنه لا بد في النكاح من ولي، وفي الحديث «لا تزوج المرأة المرأة، ولا تزوج المرأة نفسها، فإن الزانية هي التي تزوج نفسها» وقوله ﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ...﴾ أي هذا الذي نهيناكم عنه من منع الولايا أن يتزوجن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف يأتمر به ويتعظ به ويفعل له ﴿مَنْ كَانَ مِنْكُمْ﴾ أيها الناس ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي يؤمن بشرع الله، ويخاف وعيد الله وعذابه في الدار الآخرة، وما فيها من الجزاء. ﴿ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرٌ﴾ أي اتباعكم شرع الله في رد المولىات إلى أزواجهن وترك الحمية في ذلك أزكى وأطهر لقلوبكم. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ أي من المصالح فيما يأمر به وينهى عنه. ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي الخيرة فيما تأتون ولا تدرؤن.

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّىَ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارُّ وَالِدَةٌ وَلا يَوْلَادُهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَالِدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَالْقَوَا أَلْفُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٣٤﴾﴾ .

هذا إرشاد من الله تعالى للوالدات أن يرضعن أولادهن كمال الرضاعة، وهي ستان، فلا اعتبار بالرضاعة بعد ذلك. ولهذا قال: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّىَ الرِّضَاعَةَ﴾ وذهب أكثر الأئمة إلى أنه لا يحرم من الرضاعة إلا ما كان دون حولين، فلو ارتضع المولود وعمره فوقهما لم يحرم، وفي الحديث «لا يحرم من الرضاع إلا ما كان في الحولين». وقوله: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي وعلى والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن بالمعروف، أي بما جرت به عادة أمثالهن في بلدن من غير إسراف ولا إقتار بحسب قدرته في يساره وتوسطه وإقتاره. وقوله: ﴿لَا تُضَارُّ وَالِدَةٌ وَلا يَوْلَادُهَا﴾ أي بأن تدفعه عنها لتضر أباه بتريته، ولكن ليس لها دفعه إذا ولدته حتى تسقيه اللبن الذي لا يعيش بدون تناوله غالباً، ثم بعد هذا لها دفعه عنها إذا شاءت، ولكن إن كانت مضارة لأبيه فلا يحل لها ذلك،

كما لا يحل له انتزاعه منها لمجرد الضرار لها، ولهذا قال: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ يَكْفُرُ بِهِ﴾ وقوله ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ قيل في عدم الضرار لقريبه، وقيل: عليه مثل على والد الطفل من الإنفاق على والدته الطفل والقيام بحقوقها وعدم الإضرار بها، وهو قول الجمهور. وقوله: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ...﴾ أي فإن اتفق والدا الطفل على فطامه قبل الحولين ورأيا في ذلك مصلحة له وتشاورا في ذلك وأجعا عليه فلا جناح عليهما في ذلك، فيؤخذ منه أن انفراد أحدهما دون الآخر لا يكفي، ولا يجوز لواحد منهما أن يستبد بذلك من غير مشاورة الآخر. وقوله ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِضُوا...﴾ أي إذا اتفقت الوالدة والوالد على أن يستلم منها الولد، إما لعذر منها، أو لعذر له فلا جناح عليهما في بذله، ولا عليه في قبوله منها إذا سلمها أجزتها الماضية بالتي هي أحسن، واسترضع لولده غيرها بالأجرة بالمعروف. وقوله ﴿وَأَلْقُوا لِلَّهِ﴾ أي في جميع أحوالكم ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي فلا يخفى عليه من أحوالكم وأقوالكم.

﴿وَالَّذِينَ يَتُوفَوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا يَرِيصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

هذا أمر من الله للنساء اللاتي يتوفى عنهن أزواجهن أن يعتددن أربعة أشهر وعشر ليال، وهذا الحكم يشمل الزوجات المدخول بهن، وغير المدخول بهن بالإجماع، ومستنده في غير المدخول بها عموم الآية الكريمة، وهذا الحديث أن ابن مسعود سئل عن رجل تزوج امرأة فمات عنها ولم يدخل بها، ولم يفرض لها فترددوا إليه مراراً في ذلك، فقال: أقول فيها برأبي فإن يك صواباً فمن الله، وإن يك خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريتان منه: لها الصداق كاملاً، وفي لفظ لها صداق مثلها، لا وكس ولا شطط، وعليها العدة، ولها الميراث، فقام معقل بن يسار الأشجعي فقال: سمعت رسول الله ﷺ قضى به في برود بنت واشق، ففرح عبد الله بذلك فرحاً شديداً، ولا يخرج من ذلك إلا المتوفى عنها زوجها وهي حامل فإن عدتها بوضع الحمل، ولو لم تمكث بعده سوى لحظة لعموم قوله: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: 4] وقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ يستفاد من هذا وجوب الاحداد على المتوفى عنها زوجها مدة عدتها، وفي الحديث «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً» والاحداد عبارة عن ترك الزينة من الطيب، وليس ما يدعوها إلى الأزواج من ثياب وحلي وغير ذلك، وهو واجب في عدة الوفاة قولاً واحداً، ولا يجب في عدة الرجعية قولاً واحداً، وهل يجب في عدة البائن؟ فيه قولان. ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي انقضت عدتهن. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي على أوليائها. ﴿فِيمَا فَعَلْنَ﴾ يعني النساء اللاتي انقضت عدتهن أن يتزين ويتصنعن، ويتعرضن للتزويج، فذلك المعروف، أو هو النكاح الحلال الطيب.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْتَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ

سَنَذَكُرُهُنَّ وَلَكِنَّ لَا تَوَاعِدُهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ
حَلِيمٌ ﴿١٢٥﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أن تعرضوا بخطبة النساء في عدتهن من وفاة أزواجهن من غير تصريح كأن يقول: إني أريد التزوج وإن النساء لمن حاجتي، ولوددت أن يسر لي امرأة صالحة، وهكذا حكم المطلقة المبتوتة، يجوز التعريض لها. وقوله: ﴿أَوْ أَكَنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أي أضمرتم في أنفسكم من خطبتهن، ولهذا قال: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَنَذَكُرُهُنَّ﴾ أي في أنفسكم فرجع الحرج عنكم في ذلك، ثم قال: ﴿وَلَكِنَّ لَا تَوَاعِدُهُنَّ سِرًّا﴾ أي لا تقل لها إني عاشق، وعاهدني أن لا تتزوجي غيري، أو هو أن يتزوجها في العدة سرًا، فإذا حلت أظهر ذلك. ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ كقوله لوليها: لا تسبني بها، أي لا تزوجها حتى تعلمني. ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ...﴾ يعني ولا تعقدوا العقدة بالنكاح حتى تنقضي العدة، وقد أجمع العلماء على أنه لا يجوز العقد في مدة العدة، فلو تزوجها في العدة ودخل بها، فإنه يفرق بينهما. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ...﴾ توعدهم على ما يقع في ضمايرهم من أمور النساء، وأرشدهم إلى إضمار الخير دون الشر، ثم لم يؤيسهم من رحمته، ولم يقنطهم من عائدته فقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ .

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَقْرُبُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى التَّوْبِخِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٢٦﴾ .

أباح تبارك وتعالى طلاق المرأة بعد العقد عليها، وقبل الدخول بها والفرض لها إن كانت مفوضة، وإن كان في هذا انكسار لقلبها، ولهذا أمر الله بامتاعها، وهو تعويضها عما فاتها بشيء تعطاه من زوجها بحسب حاله على الموسع قدره، وعلى المقتر قدره، وعن ابن عباس: متعة الطلاق أعلاه الخادم، ودون ذلك الورق، ودون ذلك الكسوة. وهل تجب المتعة لكل مطلقة لعموم ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٢٦﴾ أو أنها تجب للمطلقة إذا طلقت قبل المسيس، وإن كانت مفوضاً لها لقوله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ لَمْ تَكُنَّ مَتَّعُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوهنَّ فَمَتَّعُوهُنَّ وَسِرَّوهُنَّ سِرًّا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: 49] أو أن المتعة إنما تجب للمطلقة إذا لم يدخل بها ولم يفرض لها؟ على أقوال - ومن العلماء من استحباها لكل مطلقة ممن عدا المفوضة المفارقة قبل الدخول، وهذا ليس بمنكور وعليه تحمل آية التخيير في الأحزاب، ومن العلماء من يقول: إنها مستحبة مطلقاً.

﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَوَضَعْنَ عَلَيْهِنَّ يَدَهُنَّ عَلَى الْعُقْدَةِ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿١٢٧﴾ .

وهذه الآية الكريمة مما يدل على اختصاص المتعة بما دلت عليه الآية الأولى، حيث إنما أوجب في هذه الآية نصف المهر المفروض إذا طلق الرجل قبل الدخول، فإنه لو كان ثم واجب آخر من متعة لبينها، لا سيما وقد قرنها بما قبلها من اختصاص المتعة بتلك الآية والله أعلم. وتشطير المهر والحالة هذه مجمع عليه بين العلماء، لا خلاف بينهم في ذلك، فإنه متى كان قد سمي لها صداقاً، ثم فارقها قبل دخوله بها فإنه يجب لها نصف ما سمي من الصداق، إلا أنه عند الثلاثة أنه يجب جميع الصداق إذا خلا بها الزوج، وإن لم يدخل بها، وهو مذهب الشافعي في القديم، وبه حكم الخلفاء الراشدون، لكن روى الشافعي عن ابن عباس أنه قال في رجل يتزوج المرأة فيخلو بها ولا يمسه، ثم يطلقها ليس لها إلا نصف الصداق، لهذه الآية، قال الشافعي: بهذا أقول، وهو ظاهر الكتاب. وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾ أي النساء عما وجب لها على زوجها، فلا يجب لها عليه شيء. وقوله: ﴿أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ...﴾ هو الزوج لما روي عن النبي ﷺ: «ولي عقدة النكاح الزوج» وهو الجديد من مذهب الشافعي، ومذهب أبي حنيفة وأصحابه، وقيل: هو أبوها أو أخوها أو من لا تنكح إلا بإذنه، وهو مذهب مالك، وقول الشافعي في القديم. وقوله: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى﴾ خوطب به الرجال والنساء، فأقربهما للتقوى الذي يعفو، فالفضل هاهنا أن تعفو المرأة عن شرطها، أو إتمام الرجل الصداق لها، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَسْأُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي الإحسان، يعني لا تسألوه، بل استعملوه بينكم، وفي الحديث «ليأتين على الناس زمان عضوض، يعض المؤمن على ما في يديه، وينسى الفضل» ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أموركم وأحوالكم، وسيجزى كل عامل بعمله.

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (١٣٨)

يأمر تعالى بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها وحفظ حدودها وأدائها في أوقاتها، وفي الحديث عن ابن مسعود «سألت رسول الله ﷺ، أي العمل أفضل؟ قال: «الصلاة في وقتها» قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»، قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين». قال: حدثني بهن رسول الله ﷺ، ولو استزدته لزداني. والصلاة الوسطى، هي الفجر، أو الظهر، أو العصر، أو المغرب، أو العشاء، أو الصلوات الخمس أقوال، أقواها فيما يبدو العصر. ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ أي خاشعين ذليلين مستكينين بين يديه، وهذا الأمر مستلزم ترك الكلام بين يديه لمنافاته إياه «إن في الصلاة لشغلاً».

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (١٣٩)

لما أمر الله عباده بالمحافظة على الصلوات والقيام بحدودها، وشدد الأمر بتأكيدها ذكر الحال الذي يشتغل فيها عن أدائها على الوجه الأكمل، وهي حال القتال، والتحام الحرب، فقال: ﴿فَإِنْ

خَفْتُمْ... ﴿ أَي فُصِّلُوا عَلَى أَي حَالٍ كَانَ رَجَالًا أَوْ رِكَبَانًا، يَعْنِي مُسْتَقْبَلِي الْقِبْلَةِ، وَغَيْرِ مُسْتَقْبَلِيهَا. ﴿ فَإِذَا أَمِنْتُمْ... ﴾ أَي أَتَمُّوا الصَّلَاةَ كَمَا أَمَرْتُمْ فَأَتَمُّوا رُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا وَقِيَامَهَا وَقَعُودَهَا وَخُشُوعَهَا وَهَجُودَهَا. ﴿ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ أَي مِثْلُ مَا أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ وَهَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ وَعَلَّمَكُم مَّا يَنْفَعُكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَاقْبَلُوهُ بِالشُّكْرِ وَالذِّكْرِ.

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ﴿٢٤٠﴾ .
 كَانَ لِلْمُتَوَفَّى عَنْهَا نَفَقَتُهَا وَسُكْنَاهَا فِي الدَّارِ سَنَةً فَنَسَخْتَهَا آيَةَ الْمَوَارِيثِ، وَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا مَاتَ وَتَرَكَ أَمْرَانَهُ اعْتَدَتْ سَنَةً فِي بَيْتِهِ يَنْفَقُ عَلَيْهَا مِنْ مَالِهِ فَنَسَخْتَهَا الْآيَةَ الْآخَرَى ﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ إِلَّا أَنْ تَكُونَ حَامِلًا فَعَدَّتْ أَنْ تَضَعُ مَا فِي بَطْنِهَا.

﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿٢٤١﴾ .
 وَقَدْ اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ مِنْ ذَهَبٍ إِلَى وَجُوبِ الْمَتْعَةِ لِكُلِّ مُطَلَّقةٍ سِوَاكَ كَانَتْ مَفُوضَةً أَوْ مَفْرُوضًا لَهَا أَوْ مُطَلَّقةً قَبْلَ الْمَسِيحِ أَوْ مَدْخُولًا بِهَا.

﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿٢٤٢﴾ .
 ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ﴾ أَي فِي إِحْلَالِهِ وَتَحْرِيمِهِ وَمَفْرُوضِهِ وَحُدُودِهِ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهَاكُمْ عَنْهُ، بَيْنَهُ وَوَضَحَهُ، وَفَسَّرَهُ وَلَمْ يَتْرِكْهُ مَجْمَلًا فِي وَقْتِ احْتِيَاجِكُمْ إِلَيْهِ. ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أَي تَفْهَمُونَ وَتَتَدَبَّرُونَ.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ ﴿٢٤٣﴾ .

كَانُوا أَرْبَعَةَ آلَافٍ خَرَجُوا فِرَارًا مِنَ الطَّاعُونَ، قَالُوا: نَأْتِي أَرْضًا لَيْسَ بِهَا مَوْتٌ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِمَوْضِعٍ كَذَا وَكَذَا، قَالَ اللَّهُ لَهُمْ: ﴿ مُوتُوا ﴾ فَمَاتُوا، فَمَرَّ عَلَيْهِمْ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ يُحْيِيَهُمْ فَأَحْيَاهُمْ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا... ﴾. وَكَانَ فِي إِحْيَائِهِمْ دَلِيلٌ قَاطِعٌ وَعِبْرَةٌ عَلَى وَقُوعِ الْمَعَادِ الْجِسْمَانِيِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ أَي فِيمَا يَرِيهِمْ مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَةِ، وَالْحُجُجِ الْقَاطِعَةِ، وَالِدَّلَالَاتِ الدَّافِعَةِ ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ أَي لَا يَقُومُونَ بِشُكْرِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ. وَفِي هَذِهِ الْقِصَّةِ عِبْرَةٌ وَدَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَنْ يَغْنِي حَذْرٌ مِنْ قَدَرٍ، وَأَنَّهُ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ، فَإِنْ هُوَ لَاءَ خَرَجُوا فِرَارًا مِنَ الْوَبَاءِ طَلَبًا لِطُولِ الْحَيَاةِ فَعُومَلُوا بِنَقِيضِ قَصْدِهِمْ وَجَاءَهُمُ الْمَوْتُ سَرِيعًا فِي أَنْ وَاحِدٍ. وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ «إِذَا كَانَ - الْوَبَاءُ - بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ، وَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ».

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٢٤).

كما أن الحذر لا يغني من القدر كذلك الفرار من الجهاد وتجنبه لا يقرب أجلاً ولا يبعده، بل الأجل المحتوم، والرزق المقسوم مقدر مقنن لا يزداد فيه، ولا ينقص منه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تَكُونُوا بِذِكْرِكُمْ الْمَوْتِ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بَرْجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ [النساء: 78].

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَمْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١٢٥).

يبحث تعالى عباده على الإنفاق في سبيل الله، وقد كرر الله هذه الآية في كتابه العزيز في غير موضع. ولما نزلت هذه الآية قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله، وإن الله ليريد منا القرض؟ قال: «نعم، يا أبا الدحداح» قال: أرني يدك يا رسول الله، قال: فناوله يده، قال: فإني قد أقرضت ربي عز وجل حائطي، قال: وحائط له فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه، وعيالها، فجاء أبو الدحداح فناداها، يا أم الدحداح، قالت: لبيك، قال: أخرجني فقد أقرضه ربي عز وجل. وقوله ﴿فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَمْعَافًا كَثِيرَةً﴾ كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْتَ سَمِيعَ سَائِلٍ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: 261] ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ أي أنفقوا ولا تبالوا، فالله هو الرزاق، يضيّق على من يشاء من عباده في الرزق، ويوسعه على آخرين، له الحكمة البالغة في ذلك ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي يوم القيامة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (١٢٦).

هذا النبي هو شمويل فقد كان بنو إسرائيل من بعد موسى على طريق الاستقامة مدة من الزمن، ثم أحدثوا الأحداث، وعبد بعضهم الأصنام، ولم يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وقيمهم على منهج التوراة إلى أن فعلوا ما فعلوا، فسلط الله عليهم أعداءهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأسروا خلقاً كثيراً، وأخذوا منهم بلداً كثيرة - ولم يكن أحد يقابلهم إلا غلبوه، وذلك أنهم كان عندهم التوراة والتابوت الذي كان في قديم الزمان، وكان ذلك هو موروثاً لخلفهم عن سلفهم إلى موسى الكليم فلم يزل بهم تماديهم على الضلال حتى استلبه منهم بعض الملوك في بعض الحروب وأخذ التوراة من أيديهم، ولم يبق من يحفظها فيهم إلا القليل، وانقطعت النبوة من أسباطهم ولم يبق من سبط لاوي الذي يكون فيه الأنبياء إلا امرأة حامل من بعلها وقد قتل فأخذوها فحبسوها في بيت، واحتفظوا بها لعل الله يرزقها غلاماً يكون نبياً لهم فوهبها الله غلاماً

فسمته شمویل، أو شمعون فشب ذاك الغلام ونشأ في بني إسرائيل، وأنبته الله نباتاً حسناً، فلما بلغ سن الأنبياء أوحى الله إليه، وأمره بالدعوة إليه وتوحيده، فدعا بني إسرائيل فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكاً يقاتلون معه أعداءهم، وكان الملك قد باد فيهم أيضاً، فقال لهم النبي: فهل عسيتم إن أقام الله لكم ملكاً ألا تقاتلوا وتنفوا بما التزتم من القتال معه ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ...﴾ أي وقد أخذت منا البلاد وسييت الأولاد، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالَ...﴾ أي ما وفوا بما وعدوا، بل نكل عن الجهاد أكثرهم والله عليهم بهم.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي لما طلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكاً منهم فعين لهم طالوت، وكان رجلاً من أجنادهم، ولم يكن من بيت الملك فيهم، لأن الملك كان في سبط يهوذا، ولم يكن هذا من ذلك السبط، فلهذا قالوا: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ أي كيف يكون ملكاً علينا ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ أي هو مع هذا فقير لا مال له يقوم بالملك، وقد ذكر بعضهم أنه كان سقاء، وقيل: دباغاً، وهذا اعتراض على نبيهم وتعنت، وكان الأولى بهم طاعة وقول معروف، ثم قد أجابهم نبيهم قائلاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي اختاره من بينكم، والله أعلم به منكم، يقول: لست أنا الذي عينته من تلقاء نفسي، بل الله أمرني به لما طلبتم مني ذلك. ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ أي وهو مع هذا أعلم منكم وأنبل وأشكل منكم وأشد قوة وصبراً في الحرب ومعرفة بها، أي أتم علماً، وقامة منكم، ومن ها هنا ينبغي أن يكون الملك ذا علم وشكل حسن، وقوة شديدة في بدنه ونفسه، ثم قال: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾ أي هو الحاكم الذي ما شاء فعل، ﴿لَا يَسْئَلُ عَنَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: 23] لعلمه وحكمته ورأفته بخلقه، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي هو واسع الفضل، يختص برحمته من يشاء، عليهم بمن يستحق الملك ممن لا يستحقه.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

يقول لهم نبيهم: إن علامة بركة ملك طالوت عليكم أن يرد الله عليكم التابوت الذي كان أخذ منكم ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فيه وقار ورحمة، وما تعرفون من آيات الله فستكون إليه. وقوله ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَارُونَ﴾ يعني عصا موسى وهارون، وثياب موسى وثياب

هارون، ورضاض الألواح. وقوله ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بين يدي طالوت والناس ينظرون، فأمنوا بنبوة شمعون، وأطاعوا طالوت. وقوله ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ﴾ أي على صدقي فيما جئتكم به من النبوة، وفيما أمرتكم به من طاعة طالوت ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي بالله واليوم الآخر.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ كَمَنْ مِن فِتْنَةٍ قَلِيلَةً غَلَبَتْ فِتْنَةَ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن طالوت ملك بني إسرائيل حتى خرج في جنوده، ومن أطاعه من ملا بني إسرائيل، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ أي مختبركم بنهر، وهو نهر بين الأردن وفلسطين، يعني نهر الشريعة المشهور ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي فلا يصحبنى اليوم في هذا الوجه ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ...﴾ أي فلا بأس عليه، قال تعالى: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ قال ابن عباس: من اغترف منه بيده روي، ومن شرب منه لم يرو. قال السدي: كان الجيش ثمانين ألفاً، فشرب منه ستة وسبعون ألفاً، وتبقى معه أربعة آلاف، لكن روي عن البراء بن عازب قال: كنا نتحدث أن أصحاب محمد ﷺ الذين كانوا يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر، وما جازه معه إلا مؤمن، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ...﴾ أي استقلوا أنفسهم عن لقاء عدوهم لكثرتهم فشجعهم علماءهم العالمون بأن وعد الله حق، فإن النصر من عند الله، ليس عن كثرة عدد، ولا عدد، ولهذا قالوا: ﴿كَمَنْ مِن فِتْنَةٍ قَلِيلَةً غَلَبَتْ فِتْنَةَ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ...﴾.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذَا وَقَاتِلْ لَنَا جَالُوتَ وَجُنُودَهُ﴾ وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾.

أي لما واجه حزب الإيمان - وهم قليل من أصحاب طالوت - لعدوهم جالوت - وهم عدد كثير - ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذَا وَقَاتِلْ لَنَا جَالُوتَ وَجُنُودَهُ﴾ أي أنزل علينا صبراً من عندك. ﴿وَقَاتِلْ لَنَا جَالُوتَ وَجُنُودَهُ﴾ في لقاء الأعداء، وجنبا الفرار والعجز ﴿وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾.

قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي غلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم. ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ ذكروا في الإسرائيليات أنه قتله بمقلاع كان في يده، رماه فأصابه فقتله، وكان طالوت قد وعده إن

قتل جالوت أن يزوجه ابنته، ويشاطره نعمته، ويشركه في أمره، فوفى به، ثم آل الملك إلى داود عليه السلام مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة، ولهذا قال: ﴿وَأَتَيْنَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ الذي كان بيد طالوت. ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي النبوة بعد شمويل. ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ أي مما يشاء الله له من العلم الذي اختصه به. ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ...﴾ أي لولا الله يدفع عن قوم بآخرين كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت، وشجاعة داود لهلكوا. وفي حديث إسناده ضعيف الإسناد عن ابن عمر «إن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء» ثم قرأ ابن عمر ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ...﴾ وفي حديث غريب ضعيف أيضاً عن جابر «إن الله ليصلح بصلاح الرجل المسلم ولده وولد ولده، وأهل دويرته، ودويرات حوله، ولا يزالون في حفظ الله عز وجل ما دام فيهم» وقد ورد عن ثوبان رفع الحديث قال: «لا يزال فيكم سبعة بهم تنصرون، وبهم تمطرون، وبهم ترزقون حتى يأتي أمر الله»، وورد حديث آخر عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الأبدال في أمتي ثلاثون، بهم ترزقون، وبهم تمطرون، وبهم تنصرون» قال قتادة: إني لأرجو أن يكون الحسن منهم.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٥٦).

أي هذه آيات الله التي قصصناها عليك من أمر الذين ذكرناهم بالحق، أي بالواقع الذي كان عليه الأمر المطابق لما بأيدي أهل الكتاب من الحق الذي يعلمه علماء بني إسرائيل. ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وهذا توكيد وتوطئة للقسم.

﴿تِلْكَ آيَاتُ الرُّسُلِ فَضَلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (١٥٧).

يخبر الله تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض، كما قال سبحانه ﴿وَلَقَدْ فَضَلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: 55] ﴿مِنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ يعني موسى ومحمداً صلى الله عليه وسلم، وكذلك آدم عليه السلام كما ورد به الحديث المروي في صحيح ابن حبان عن أبي ذر رضي الله عنه. ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ كما ثبت في حديث الإسراء حين رأى النبي صلى الله عليه وسلم الأنبياء في السموات بحسب تفاوت منازلهم عند الله عز وجل. فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الثابت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال اليهودي في قسمه: لا والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم يده فطمم بها وجه اليهودي، فقال: أي خبيث، وعلى محمد صلى الله عليه وسلم؟ فجاء اليهودي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فاشتكى على المسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تفضلوني

على الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش، فلا أدري أفاق قبلي، أو جوزي بصعقة الطور؟ فلا تفضلوني على الأنبياء» وفي رواية «لا تفضلوا بين الأنبياء» فالجواب من وجوه: أحدها أن هذا كان قبل أن يعلم بالفضل، وفي هذا نظر. الثاني أن هذا قاله من قبل الهضم والتواضع، الثالث أن هذا نهي عن التفضيل في مثل هذه الحال التي تحاكموا فيها عند التخاصم والتشاجر، الرابع لا تفضلوا بمجرد الآراء والعصبية، الخامس ليس مقام التفضيل إليكم، وإنما هو إلى الله عز وجل، وعليكم الانقياد والتسليم له والإيمان به. ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ آيَاتِنَا﴾ أي الحجج والدلائل القاطعات على صحة ما جاء بني إسرائيل به من أنه عبد الله ورسوله إليهم. وروح القدس جبريل عليه السلام ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا...﴾ أي كل ذلك عن قضاء الله وقدره.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِي يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

يأمر الله تعالى عباده بالإنفاق مما رزقهم في سبيله سبيل الخير ليدخروا ثواب ذلك عند ربهم، ومليكتهم، وليبادروا إلى ذلك في هذه الحياة الدنيا ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِي يَوْمٌ﴾ يعني يوم القيامة ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ﴾ أي لا يباع أحد من نفسه، ولا يفادي بمال لو بذله، ولو جاء بملء الأرض ذهباً، ولا تنفعه خلة أحد، يعني صداقته، بل ولا نسابته، كما قال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ﴾ [المؤمنون: 101] ﴿وَلَا شَفَعَةٌ﴾، أي ولا تنفعهم شفاعة الشافعين. وقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ مبتدأ محصور في خبره، أي ولا ظالم أظلم ممن وافى الله يومئذ كافراً. وقد روى ابن أبي حاتم عن عطاء بن دينار أنه قال: الحمد لله الذي قال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ولم يقل: والظالمون هم الكافرون.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُٗٓ إِلَّا بِإِذْنِهِٗ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِٗ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾.

هذه آية الكرسي، ولها شأن عظيم، وقد صح الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها أفضل آية في كتاب الله، عن أبي، هو ابن كعب أن النبي صلى الله عليه وسلم سأله «أي آية في كتاب الله أعظم؟» قال: الله ورسوله أعلم، فرددها مراراً، ثم قال: آية الكرسي قال: «ليهنك العلم أبا المنذر، والذي نفسي بيده، إن لها لساناً وشفقتين تقدس الملك عند ساق العرش». وهذه الآية مشتملة على عشر جهل مستقلة فقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إخبار بأنه المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق. ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ أي الحي في نفسه الذي لا يموت أبداً، القيم لغيره. ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ أي لا يعثره نقص ولا غفلة ولا ذهول

عن خلقه، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، ولا يخفى عليه خافية، فلا تغلبه سنة، وهو الوش والنعاس ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾، وهو أقوى من السنة. وفي الصحيح عن أبي موسى قال: «قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل، وعمل الليل قبل عمل النهار، حجابه النور، أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى بصره من خلقه». ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ إخبار بأن الجميع عبيده وفي ملكه وتحت قهره وسلطانه. ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه أن لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه له في الشفاعة، كما في حديث الشفاعة «آتي تحت العرش فأخر ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع رأسك، وقل تسمع واشفع تشفع قال: فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة». وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات ماضيها وحاضرها ومستقبلها. ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ أي لا يطلع أحد من علم الله على شيء إلا بما أعلمه الله عز وجل وأطلعته عليه. ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ عن ابن عباس قال: علمه. ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ أي لا يثقله ولا يكثره حفظ السموات والأرض ومن فيهما، ومن بينهما، بل ذلك سهل عليه، يسير لديه، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على جميع الأشياء، فلا يعزب عنه شيء، والأشياء كلها حقيرة بين يديه، متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه، محتاجة فقيرة، وهو الغني الحميد، الفعال لما يريد، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وهو القاهر لكل شيء، الحسيب على كل شيء، الرقيب العلي العظيم، لا إله غيره، ولا رب سواه.

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾.

أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام، فإنه بين واضح جلي دلالة وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه، وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيد الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً. ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ...﴾ أي من خلع الأنداد والأوثان، وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله ووجد الله فعبده وحده وشهد أن لا إله إلا هو ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ أي فقد ثبت في أمره، واستقام على الطريقة المثلى والصراط المستقيم. وشبه ذلك بالعروة القوية التي لا تنفصم، فهي في نفسها، محكمة مبرمة قوية، وربطها قوي شديد. والعروة الوثقى: الإيمان، أو الإسلام.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾.

يخبر الله تعالى أنه يهدي من اتبع رضوانه سبل السلام، فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلي المبين السهل النير، وأن الكافرين إنما وليهم الشيطان، يزين لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات، ويخرجونهم ويحيدون بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك. ووحده تعالى لفظ النور، وجمع الظلمات لأن الحق واحد، والكفر أجناس كثيرة، وكلها باطلة. ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: 153].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبرَاهِيمُ فَإِنَّكَ اللَّهُ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

هذا الذي حاج إبراهيم في ربه هو ملك بابل، نمرود بن كنعان. قال مجاهد: وملك الدنيا: مشارقتها ومغارها أربعة: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان سليمان بن داود، وذو القرنين، والكافران نمرود وبختنصر. والله أعلم. ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي بقلبك يا محمد. ﴿إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ أي في وجود ربه، وذلك أنه أنكر أن يكون ثم إله غيره، كما قال بعده فرعون لملكه ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: 38] وما حمله على هذا الطغيان والكفر الغليظ، والمعاندة الشديدة إلا تجبره، وطول مدته في الملك وذلك أنه يقال: إنه مكث أربعمئة سنة في ملكه، ولهذا قال: ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ وكان طلب من إبراهيم دليلاً على وجود الرب الذي يدعو إليه فقال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي إنما الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها، وعدمها بعد وجودها، قال النمرود: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ ادعى لنفسه هذه المقام عناداً ومكابرة، وأوهم أنه هو الذي يحيي ويميت إذ قال: إني أوتى بالرجلين قد استحقا القتل فأمر بقتل أحدهما فيقتل وأمر بالعمو عن الآخر فلا يقتل، فرد إبراهيم هذه المكابرة بقوله: ﴿فَأِنَّكَ اللَّهُ يَأْتِي بِالشَّمْسِ...﴾ أي إذا كنت تدعي من أنك تحيي وتميت فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق فإن كنت إلهاً كما ادعيت تحيي وتميت فأت بها من المغرب؟ فلما علم عجزه وانقطاعه، وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام بهت أي أخرس فلا يتكلم، وقامت عليه الحجة ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا يلهمهم حجة ولا برهاناً، بل حجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد.

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتُ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى صَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى

الْعِظَارِ كَيْفَ نُنشِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ .

اختلفوا في هذا المار من هو؟ فقيل: هو عزيز، وهذا القول هو المشهور، وقيل: هو أرميا بن حلقيا، وقيل: هو اسم الخضر عليه السلام، وقيل: حزقيل. وأما القرية فالمشهور أنها بيت المقدس، مر عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها: ﴿وَهِيَ حَاوِيَةٌ﴾ أي ليس فيها أحد، من قولهم: خوت الدار تخوي خويًا. وقوله: ﴿عَلَى عُرُوشِهَا﴾ أي ساقطة سقوفها وجدرانها على عرصاتها، فوقف متفكرًا فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة، وقال ﴿أَنِّي يُعَيِّهِ هَذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وذلك لما رأى من دثورها وشدة خرابها، وبعدها عن العود لما كانت عليه. قال تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ وعمرت البلدة بعد سبعين سنة من موته وتكامل ساكنوها، وتراجع بنو إسرائيل إليها، فلما بعثه الله بعد موته كان أول شيء أحيا الله فيه عينيه لينظر بهما إلى صنع الله فيه، كيف يحيي بدنه، فلما استقل سويًا ﴿قَالَ﴾ الله له أي بواسطة الملك ﴿كَمْ لَيْتُ قَالَ لَيْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وذلك أنه مات أول النهار، ثم بعثه في آخر النهار، فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم ﴿قَالَ بَلْ لَيْتُ . . .﴾ وذلك أنه كان معه فيما ذكر عنب وتين وعصير، فوجده لم يتغير منه شيء، لا العصير استعمال، ولا التين حمض ولا أنتن، ولا العنب نقص ﴿وَأَنْظَرَ إِلَى جَمَارِكَ﴾ أي كيف يحييه الله عز وجل وأنت تنظر ﴿وَلِنَجْمِكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ أي دليلًا على المعاد ﴿وَأَنْظَرَ إِلَى الْعِظَارِ كَيْفَ نُنشِرُهَا﴾ أي نحييها، ﴿ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي أنا عالم بهذا، وقد رأيته عيانًا، فانا أعلم أهل زماني بذلك.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لَيْطَمِينَ قُلُوبِي قَالَ فَخَذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصَرَّهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ .

ذكروا لسؤال إبراهيم عليه السلام أسبابًا منها أنه لما قال لنمرود ﴿رَبِّ أَلَّذِي يُعَيِّهِ وَيُمِيتُ﴾ أحب أن يترقى من علم اليقين بذلك إلى عين اليقين، وأن يرى ذلك مشاهدة فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى . . .﴾ وقوله: ﴿فَصَرَّهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أوثقهن، فلما أوثقهن ذبحهن، ثم جعل على كل جبل منهن جزءًا، فذكروا أنه عمد إلى أربعة من الطير فذبحهن ثم قطعهن، ورتف ريشهن، ومزقهن، وخلط بعضهن ببعض، ثم جزأهن أجزاء، وجعل على كل جبل منهن جزءًا، وأخذ رؤوسهن بيده، ثم أمره الله أن يدعوهم فدعاهن كما أمره الله عز وجل، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، والدم إلى الدم، واللحم إلى اللحم، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض حتى قام كل طائر على حدته وأتينه يمشين سعيًا، ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها، وجعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه

الذي في يد إبراهيم عليه السلام ، فإذا قدم له غير رأسه يأباه ، فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جسده بحول الله وقوته ، ولهذا قال : ﴿وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي عزيز لا يغلبه شيء ، ولا يمتنع منه شيء ، وما شاء كان بلا مانع ، لأنه القاهر لكل شيء ، حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره . قال ابن عباس لابن عمرو بن العاص : أي آية في القرآن أرجى عندك؟ فقال عبد الله بن عمرو : قول الله : ﴿قُلْ يَتَّبِعُونَ الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ . . .﴾ [الزمر: 53] فقال ابن عباس : لكن أنا أقول : قول الله عز وجل : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ . . .﴾ فرضي من إبراهيم قوله : ﴿بَلَىٰ﴾ قال : فهذا لما يعترض في النفوس ويوسوس به الشيطان . وفي الحديث : «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال : رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَئِمَّةٌ تُوَيْنَ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيُطَمِّنَ قَلْبِي﴾ والمعنى إذا لم أشك أنا في قدرة الله على إحياء الموتى ، فإبراهيم أولى بأن لا يشك ، وقال ذلك : على سبيل التواضع ، والهضم من النفس .

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ .

هذا مثل ضربه الله لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله ، وابتغاء مرضاته ، وأن الحسنه تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف . عن ابن مسعود أن رجلاً تصدق بناقة مخطومة في سبيل الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لتأتين يوم القيامة بسبعمائة ناقة مخطومة» . ﴿وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي بحسب إخلاصه في عمله . ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي فضله واسع كثير ، أكثر من خلقه ، عليم بمن يستحق ، ومن لا يستحق ، سبحانه وبحمده .

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ .

يمدح سبحانه وتعالى الذين ينفقون في سبيله ، ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات مناً على من أعطوه ، فلا يمتنون به على أحد ، ولا يمتنون به لا بقول ولا فعل . وقوله ﴿وَلَا أَذَىٰ﴾ أي لا يفعلون مع من أحسنوا إليه مكرهاً يحيطون به ما سلف من الإحسان . ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي ثوابهم على الله ، لا على أحد سواه . ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي فيما يستقبلونه من أحوال الإحسان . ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي ثوابهم على الله ، لا على أحد سواه . ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي فيما يستقبلونه من أحوال القيامة . ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي على ما خلفوه من الأولاد ، ولا ما فاتهم من الحياة الدنيا وزهرتها لأنهم صاروا إلى ما هو خير لهم من ذلك .

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَىٰ وَاللَّهُ عَنِّي حَلِيمٌ﴾ .

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أي من كلمة طيبة ، ودعاء لمسلم . ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي عفو وغفر عن ظلم قولي أو

فعلي. ﴿خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَى﴾ عن عمرو بن دينار قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «ما من صدقة أحب إلى الله من قول معروف، ألم تسمع قول الله: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ...﴾. ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عن خلقه. ﴿حَلِيمٌ﴾ أي يحلم ويغفر ويصفح ويتجاوز عنهم. وفي الحديث «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: المنان بما أعطى، والمسبل إزاره، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب».

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا بُطْلُوهَا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابُهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢١٤﴾﴾.

أخبر تعالى أن الصدقة تبطل بما يتبعها من المن والأذى، فما بقي ثواب الصدقة بخطيئة المن والأذى، والمعنى: لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كما تبطل صدقة من رآى بها الناس، فأظهر لهم أنه يريد وجه الله، وإنما قصده مدح الناس له، أو شهرته بالصفات الجميلة، ليشكر بين الناس، أو يقال: إنه كريم، ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى، وابتغاء مرضاته، وجزيل ثوابه، ولهذا قال: ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ثم ضرب الله تعالى مثل ذلك المراني بإنفاقه فقال: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ وهو جمع صفوانة، فمنهم من يقول: الصفوان يستعمل مفرداً أيضاً، وهو الصفا، وهو الصخر الأملس. ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابُهُ وَابِلٌ﴾ وهو المطر الشديد. ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ أي فترك الوابل ذلك الصفوان صلداً أي أملس يابساً أي لا شيء عليه من ذلك التراب، بل قد ذهب كله، أي وكذلك أعمال المرثين تذهب وتضمحل عند الله، وإن ظهر لهم أعمال فيما يرى الناس كالتراب، ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ...﴾.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَوَيْبَاتٍ مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَمَاتَتْ أَكْلُهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢١٥﴾﴾.

وهذا مثل المؤمنين المنفقين أموالهم ابتغاء مرضات الله عنهم في ذلك ﴿وَتَوَيْبَاتٍ مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي وهم متحققون ومثبتون أن الله سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء. وقوله: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ أي كمثل بستان بربوة، وهو عند الجمهور المكان المرتفع من الأرض. وقوله: ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ وهو المطر الشديد. ﴿أَكْلُهَا﴾ أي ثمرتها. ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ أي بالنسبة إلى غيرها من الجنان. ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ﴾ هو الرذاذ، وهو اللين من المطر، أي هذه جنة بهذه الربوة لا تمحل أبداً، لأنها إن لم يصبها وابل فطل، وأياً ما كان فهو كفايتها، وكذلك عمل المؤمنين لا يبور أبداً، بل يتقبله الله، ويكثره، وينمي، كل عامل بحسبه، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي لا يخفى عليه من أعمال عباده شيء.

﴿أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضِعْفًا فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿١١٦﴾﴾ .

﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ﴾ هو الريح الشديد. ﴿فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ أي أحرق ثمارها، وأباد أشجارها، فأى حال يكون حاله؟. عن ابن عباس قال: ضرب الله مثلاً حسناً، وكل أمثاله حسن قال: ﴿أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ...﴾ يقول: ضيعة في شيبته ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ وولده وذريته ضعاف عند آخر عمره، فجاءه إعصار فيه نار فاحترق بستانه، فلم يكن عنده قوة أن يغرس مثله، ولم يكن عند نسله خير يعودون عليه، وكذلك الكافر يوم القيامة إذا رد إلى الله عز وجل ليس له خير فيستعتب كما ليس لهذا قوة فيغرس مثل بستانه، ولا يجده قدم لنفسه خيراً يعود عليه كما لم يغن عن هذا ولده، وحرّم أجره عند أفقر ما كان إليه، كما حرّم هذا جنته عندما كان أفقر ما كان إليها عند كبر سنه وضعف ذريته. روى الحاكم في مستدركه أن رسول الله ﷺ كان يقول في دعائه: «اللهم اجعل أوسع رزقك عليّ عند كبر سني، وانقضاء عمري». ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي تعتبرون له وتفهمون الأمثال والمعاني وتنزلونها على المراد منها، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [العنكبوت: 43].

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْنِئُوا فِيهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ عَنِّي حَمِيدٌ ﴿١٢٧﴾﴾ .

يأمر الله عباده بالصدقة من طيبات ما رزقهم من الأموال التي اكتسبوها، من الذهب والفضة، والثمار والزروع، قال ابن عباس: أمرهم بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه، ونهاهم عن التصدق بردالة المال ودنيته، وهو خبيثه، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً. ولهذا قال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ﴾ أي لا تقصدوا الخبيث. ﴿مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ...﴾ أي لو أعطيتموه ما أخذتموه إلا أن تتقاضوا فيه، فإن الله أغنى عنه منكم، فلا تجعلوا الله ما تكرهون، أو معناه لا تعدلوا عن المال الحلال، وتقصدوا إلى الحرام فتجعلوا نفقتكم منه. وفي الحديث «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفسي بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه، قالوا: وما بوائقه يا رسول الله؟ قال: «غشه وظلمه» ولا يكسب عبد مالا من حرام، فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق به فيقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيء بالسيء، ولكن يمحو السيء بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث». والآية نزلت في الأنصار، كانت الأنصار إذا كانت أيام جذاذ النخل أخرجت من حيطانها

- بساينها - البسر، فعلقوه على جبل بين الاسطوانتين في مسجد رسول الله ﷺ، فأكل فقراء المهاجرين منه، فيعمد الرجل منهم إلى الخشف فيدخله في أقفار البسر يظن أن ذلك جائز، فأنزل الله فيمن فعل ذلك ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ وقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَنِّي حَكِيمٌ﴾ أي وإن أمركم بالصدقات وبالطيب منها فهو غني عنها، وما ذاك إلا أن يساوي الغني الفقير، كقوله: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤَهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ الْقُلُوبُ مِنْكُمْ﴾ [الحج: 37] وهو غني عن جميع خلقه، وجميع خلقه فقراء إليه، وهو واسع الفضل، لا ينفد ما لديه، فمن تصدق بصدقة من كسب طيب فليعلم أن الله غني واسع العطاء، كريم جواد، وسيجزيه بها، ويضاعفها له أضعافاً كثيرة، من يقرض غير عديم ولا ظلوم؟ وهو الحميد، أي المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره لا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٦٨).

في الحديث «إن للشيطان لمة بابن آدم، وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاذ بالشر، وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاذ بالخير، وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان» ثم قرأ هذه الآية. وقوله ﴿يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ أي يخوفكم الفقر لتمسكوا ما بأيديكم فلا تفقوه في مرضاة الله. ﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ أي مع نيه إياكم عن الإنفاق خشية الاملاق، يأمركم بالمعاصي والمآثم والمحارم ومخالفة الخلاق. ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ﴾ أي في مقابلة ما أمركم الشيطان بالفحشاء. ﴿وَفَضْلًا﴾ أي في مقابلة ما خوفكم الشيطان الفقر.

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (١٦٩).

﴿الْحِكْمَةَ﴾ القرآن والسنة والتفسير والعلم والفقہ وخشية الله، فإن خشية الله رأس كل حكمة ورأس الحكمة مخافة الله. وفي الحديث «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكة في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس».

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (١٧٠).

يخبر الله تعالى بأنه عالم بجميع ما يفعله العاملون من الخيرات من النفقات والمندورات، وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين لذلك ابتغاء وجهه، ورجاء موعوده، وتوعد من لا

يعمل بطاعته، بل خالف أمره، وكذب خبره، وعبد معه غيره. ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أي يوم القيامة ينقذونهم من عذاب الله ونقمته.

﴿إِنْ بُدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

أي إن أظهرتموها فنعم شيء هي. وقوله: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ فيه دلالة على أن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها لأنه أبعد عن الرياء إلا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة من اقتداء الناس به فيكون أفضل من هذه الحثية. وفي الحديث «رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه». ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي لا يخفى عليه من ذلك شيء، وسيجزىكم عليه.

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْتُمْ لَكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه كان يأمر بأن لا يتصدق إلا على أهل الإسلام حتى نزلت هذه الآية، فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين ﴿لَا يَنْهَكُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقِيلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحة: 8] وقوله ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْتُمْ لَكُمْ﴾ كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ [نصلت: 46] ونظائرها في القرآن كثيرة. وقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ يعني إذا أعطيت لوجه الله فلا عليك ما كان عمله، أي إن المتصدق إذا تصدق ابتغاء وجه الله فقد وقع أجره على الله، ولا عليه في نفس الأمر لمن أصاب، البر، أو فاجر، أو مستحق، أو غيره؟ وهو مثاب على قصده، ومستند هذا تمام الآية ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ...﴾. والحديث المخرج في الصحيحين عن أبي هريرة: «قال: قال رجل لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية، فأصبح الناس يتحدثون: تصدق على زانية، فقال: اللهم لك الحمد على زانية، لأنتصدقن الليلة بصدقة فوضعها في يد غني، فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على غني، قال: اللهم لك الحمد على غني، لأنتصدقن الليلة بصدقة فخرج فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على سارق، فقال: اللهم لك الحمد على زانية وعلى غني وعلى سارق، فأتني فقيل له: أما صدقتك فقد قبلت، وأما الزانية فلعلها أن تستعف بها عن الزنا، ولعل الغني يعتبر فينق مما أعطاه الله، ولعل السارق أن يستعف بها عن سرقة».

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ الْعَقْفِ تَعْرِفُهُمْ بِسَيِّئَاتِهِمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْكَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

يعني المهاجرين الذين انقطعوا إلى الله وإلى رسوله، وسكنوا المدينة، وليس لهم سبب يردون على

أنفسهم ما يغنيهم. ﴿صَرَيبًا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني سفرًا للتسبب في طلب المعاش، والضرب في الأرض هو السفر. وقوله ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ...﴾ أي الجاهل بأمرهم وحالهم يحسبهم أغنياء من تعففهم في لباسهم وحالهم ومقالهم، وفي الحديث: «ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده التمرة والتمرتان، واللقمة واللقتان، والأكلة والأكلتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يظن له فيتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئاً». وقوله ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ أي بما ظهر لذوي الأبواب من صفاتهم. ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا﴾ أي لا يلحون في المسألة، ويكلفون الناس ما لا يحتاجون إليه، فإن من سأل وله ما يغنيه عن المسألة فقد ألحف في المسألة. وقوله ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَأَبَتْ اللَّهُ يَدَهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي لا يخفى عليه شيء منه، وسيجزي عليه أوفر الجزاء وأتمه يوم القيامة أحوج ما يكون إليه.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٧٤).

هذا مدح منه تعالى للمنفقين في سبيله وابتغاء وجهه في جميع الأوقات من ليل أو نهار، حتى إن النفقة على الأهل تدخل في ذلك وفي الحديث «إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة حتى ما تجعل في في امرأتك». وقوله ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي يوم القيامة على ما فعلوا من الاتفاق في الطاعات.

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٧٥).

لما ذكر الله الأبرار المؤدين النفقات المخرجين الزكوات المتفضلين بالبر والصدقات لذوي الحاجات والقربابات في جميع الأحوال والأوقات شرع في ذكر أكلة الربا وأموال الناس بالباطل وأنواع الشبهات، فأخبر عنهم يوم خروجهم من قبورهم وقيامهم منها إلى بعثهم ونشورهم فقال: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا...﴾ أي لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه، وتخبط الشيطان له، وذلك أنه يقوم قياماً منكراً. وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا...﴾ أي إنما جوزوا بذلك لاعتراضهم على أحكام الله في شرعه. ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ...﴾ أي من بلغه نهي الله عن الربا فانتهى حال وصول الشرع إليه فله ما سلف من المعاملة. ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى الربا ففعله بعد بلوغه نهي الله عنه فقد استوجب العقوبة، وقامت عليه الحجة، ولهذا قال: ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ...﴾ وفي الحديث «لعن الله آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه».

﴿يَمَحُقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ (٢٧٦).

يخبر تعالى أنه يمحق الربا، أي يذهب، إما بأن يذهبه بالكلية من يد صاحبه، أو يحرمه بركة ماله، فلا ينتفع به، بل يعدمه في الدنيا، ويعاقبه عليه يوم القيامة. وفي الحديث: «إن الربا وإن كثر، فإن عاقبته تصير إلى قتل». وقوله: ﴿وَيُزِيهِ الصَّدَقَاتُ﴾ أي ينميها ويكثرها، وفي الحديث «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربها لصاحبه كما يربي أحدكم فلوه، حتى يكون مثل الجبل» وقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُجِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ أي لا يحب كفور القلب، أثيم القول والفعل.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٧٧).

يقول تعالى: مادحاً للمؤمنين بربهم، والمطيعين أمره، المؤدين شكره، المحسنين إلى خلقه في إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، مخبراً عما أعد لهم من الكرامة، وأنهم يوم القيامة من التبعات آمنون: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا...﴾.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٧٨).

يأمر الله عباده المؤمنين بتقواه، وينهاهم عما يقربهم إلى سخطه، ويبعدهم عن رضاه، فيقول: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي خافوه وراقبه فيما تفعلون. ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ أي اتركوا مالكم على الناس من الزيادة على رؤوس الأموال بعد هذا الانذار ﴿إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي بما شرع الله لكم من تحليل البيع، وتحريم الربا وغير ذلك. كان بين بني عمرو بن عمير من ثقيف، وبني المغيرة من بني مخزوم ربا في الجاهلية، فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه طلبت ثقيف أن تأخذ منهم، فتشاوروا، وقالت بنو المغيرة لا نؤدي الربا في الإسلام بكسب الإسلام، فكتب في ذلك عتاب بن أسيد نائب مكة إلى رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية، فكتب رسول الله ﷺ إليه، بهذه الآية والتي بعدها: ﴿فَإِن لَّمْ تَقْعَلُوا فَاذْنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾.

﴿فَإِن لَّمْ تَقْعَلُوا فَاذْنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتَرُوا فَالْأَمْوَالُ لَكُمْ رُءُوسٌ فَلَا تَطْلُمُونَ وَلَا تَسْلُمُونَ﴾ (١٧٩).

فقالوا: نوب إلى الله ونذر ما بقي من الربا، فتركوه كلهم، وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد لمن استمر على تعاطي الربا بعد الانذار. عن ابن عباس قال: «يقال يوم القيامة لأكل الربا: خذ سلاحك للحرب، ثم قرأ ﴿فَإِن لَّمْ تَقْعَلُوا فَاذْنُوا بِحَرْبٍ...﴾ وقال علي بن طلحة عن ابن عباس: «فمن كان مقيماً على الربا لا ينزع عنه كان حقاً على إمام المسلمين أن يستتيبه، فإن نزع، وإلا ضرب عنقه». وقوله ﴿لَا تَطْلُمُونَ﴾ أي بأخذ الزيادة. ﴿وَلَا تَسْلُمُونَ﴾ أي بوضع رؤوس الأموال أيضاً، بل لكم ما بذلت من غير زيادة عليه، لا نقص منه.

﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٨٠).

يأمر تعالى بالصبر على المعسر الذي لا يجد وفاء فقال: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ...﴾ لا كما قال أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه إذا حل عليه الدين، إما أن تقضي وإما أن تربي. ثم يندب تعالى إلى الوضع عنه، ويعد على ذلك الخير والثواب الجزيل، فقال: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ...﴾ أي وأن تتركوا رأس المال بالكلية، وتضعوه عن المدين. وفي الحديث: «من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله فليسر على معسر، أو ليضع عنه» وعن حذيفة أن رجلاً أتى به الله عز وجل، فقال: ماذا عملت في الدنيا؟ فقال له الرجل: ما عملت مثقال ذرة من خير، فقال ثلاثاً، وقال في الثالثة: إني كنت أعطيتني فضلاً من المال في الدنيا، فكنت أبايع الناس، فكنت أيسر على الموسر، وأنظر المعسر، فقال تبارك وتعالى: «نحن أولى بذلك منك، تجاوزوا عن عبدي، فغفر له».

﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَىٰ اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٢٨١).

ثم قال تعالى يعظ عباده ويذكرهم زوال الدنيا وفناء ما فيها من الأموال وغيرها، وإتيان الآخرة والرجوع إليه تعالى، ومحاسبته خلقه على ما عملوا ومجازاته إياهم بما كسبوا من خير وشر ويحذرهم عقوبته فقال: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ...﴾ وقد روي أن هذه الآية آخر آية نزلت من القرآن كله، يقولون: إن النبي عاش بعدها تسع ليال، وبدى يوم السبت، ومات يوم الاثنين ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِكْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَأَسْأَلُهُمْ شُهَدَاءُ مِنْ رِبَّائِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢٨٢).

هذه الآية أطول آية في القرآن العظيم. وقد أرشد الله فيها عباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها، ليكون ذلك أحفظ لمق دارها وميقاتها، وأضبط للشاهد فيها. عن ابن عباس قال: «قدم النبي ﷺ المدينة، وهم يسلفون في الثمار السنة والستين والثلاث، فقال

رسول الله ﷺ: «من أسلف فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم» وقوله ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ أمر منه تعالى بالكتابة للتوثيق والحفظ. قال ابن جريج: من أدان فليكتب، ومن ابتاع فليشهد، قال كعب ذات يوم لأصحابه: هل تعلمون مظلوماً دعا ربه فلم يستجب له؟ قالوا: وكيف يكون ذلك؟ قال: رجل باع بيعاً إلى أجل فلم يشهد ولم يكتب، فلما حل ماله جحده صاحبه، فدعا ربه فلم يستجب له، لأنه قد عصى ربه» وقيل: كانت كتابة الدين واجبة ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ...﴾ والدليل على ذلك أيضاً ما روى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه ذكر أن رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال: اتني بشهداء أشهدهم، قال: كفى بالله شهيداً، قال: اتني بكفيل، قال: كفى بالله كفياً، قال: صدقت، فدفعها إليه إلى أجل مسمى، فخرج في البحر فقضى حاجته، ثم التمس مركباً يقدم عليه للأجل الذي أجله، فلم يجد مركباً، فأخذ خشبة فنقرها، فأدخل فيها ألف دينار، وصحيفة معها إلى صاحبها، ثم زجج موضعها، ثم أتى بها إلى البحر، ثم قال: اللهم إنك تعلم أنني استلفت فلاناً ألف دينار، فقلت: كفى بالله كفياً، فرضي بذلك، وسألني شهيداً فقلت: كفى بالله شهيداً فرضي بذلك، وإني جهدت أن أجد مركباً أبعث بها إليه بالذي أعطاني فلم أجد مركباً، وإني استودعتكها فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف وهو في ذلك يطلب مركباً إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركباً تجيئه بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال فأخذها لأهله حطباً، فلما كسرهما وجد المال والصحيفة، ثم قدم الرجل الذي كان تسلف منه فاتاه بألف دينار، وقال: والله ما زلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك، فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه، قال: هل كنت بعثت إليّ بشيء؟ قال: ألم أخبرك أنني لم أجد مركباً قبل هذا الذي جئت به؟ قال: فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت به في الخشبة، فانصرف بألفك راشداً» وهذا إسناد صحيح، وقد رواه البخاري في سبعة مواضع من طرق صحيحة معلقاً بصيغة الجزم. ﴿يَالْمَكْدَلِ﴾ بالقسط والحق، ولا يجر في كتابته على أحد، ولا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة ولا نقصان. وقوله: ﴿وَلَا يَأْبُ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾ أي ولا يمتنع من يعرف الكتابة إذا سئل أن يكتب للناس، ولا ضرورة عليه في ذلك، فكما علمه الله ما لم يكن يعلم فليصدق على غيره ممن لا يحسن الكتابة. وفي الحديث «إن من الصدقة أن تعين صانعاً أو تصنع لأخرق» وفيه «من كتم علماً يعلمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار» وقوله: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِينَ...﴾ أي وليملل المدين على الكاتب ما في ذمته من الدين وليتق الله في ذلك ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً﴾ أي لا يكتم منه شيئاً. ﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً﴾ محجوراً عليه بتبذير ونحوه. ﴿أَوْ ضَعِيفاً﴾ أي صغيراً أو مجنوناً ﴿أَوْ لَا يَسْتطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ﴾ إما لغى أو جهل بموضع صواب ذلك وخطأه ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾. ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ...﴾ أمر بالإشهاد مع الكتابة لزيادة التوثيق. ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ﴾ وهذا إنما يكون في الأموال، وما يقصد به المال. ﴿وَمَنْ رَضِيَ مِنَ الشَّهَادَةِ﴾ فيه دلالة على اشتراط العدالة في الشهود. ﴿وَلَا يَأْبُ الشَّهَادَةَ إِذَا مَا دُعُوا﴾

معناه إذا دعوا للتحمل فعليهم الإجابة، ومن هنا استفيد أن تحمل الشهادة فرض كفاية ﴿وَلَا يَأْبَ الشَّهَادَةَ إِذَا مَا دُعُوا﴾ للاداء ﴿وَلَا تَسْمُرُوا أَنْ...﴾ هذا من تمام الإرشاد، وهو الأمر بكتابة الحق، صغيراً كان أو كبيراً. ﴿ذَلِكَ لَكُمْ أَنْتُمْ...﴾ أي أعدل وأثبت للشاهد إذا وضع خطه ثم رآه تذكر به الشهادة ﴿وَأَذِّنْ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ وأقرب إلى عدم الريبة، بل ترجعون عند التنازع إلى الكتاب الذي كتبتموه، فيفصل بينكم بلا ريبة. وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاصِرَةً...﴾ أي إذا كان البيع بالحاضر، يبدأ بيد فلا بأس بعدم الكتابة لانتهاء المحذور في تركها. ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ أي أشهدوا على حقكم إذا كان فيه أجل أو لم يكن فيه أجل فأشهدوا على حقكم. ﴿وَلَا يُصَبِّحُ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ قيل: معناه لا يضرار الكاتب ولا الشاهد، فيكتب هذا خلاف ما يملي، ويشهد هذا بخلاف ما سمع، أو يكتبها بالكلية. وقيل: معناه لا يضر بهما، فيأتي الرجل فيدعوهما إلى الكتاب والشهادة فيقولان: إنا على حاجة، فيقول: إنكما قد أمرتما أن تحببا، فليس له أن يضرهما ﴿وَأَنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ أي إن خالفتم ما أمرتم به، وفعلتم ما نهيتم عنه فإنه فسق كائن بكم، أي لازم لكم لا تحيدون عنه ولا تنفكون عنه. ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي خافوه وراقبوه، واتبعوا أمره وارتكوا زجره. ﴿وَيَعْلَمُ اللَّهُ﴾ هو كقوله: ﴿بِأَيِّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: 29] ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي هو عالم بحقائق الأمور ومصالحها وعواقبها، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء، بل علمه محيط بجميع الكائنات.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنُمْ مَقْبُوضَةً فَإِنْ مِنْ بَعْضِكُمْ بَعْضًا فَايُودِرِ الَّذِي أَؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ وَلِيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكُونُوا الشَّاهِدَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءِثْمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٧٨٣).

﴿عَلَى سَفَرٍ﴾ أي مسافرين، وتداينتم إلى أجل مسمى. ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾ يكتب لكم، أو وجدوه ولم يجدوا قرطاساً أو دواة، أو قلماً ﴿فَرِهْنُمْ مَقْبُوضَةً﴾ أي فليكن بدل الكتابة رهان مقبوضة أي في يد صاحب الحق، وقد استبدل به الشافعي والجمهور على أن الرهن لا يلزم إلا بالقبض. واستدل به آخرون على أنه لا بد أن يكون الرهن مقبوضاً في يد المرتهن، وهو رواية عن الإمام أحمد. واستدل به آخرون على أن الرهن لا يكون مشروعاً إلا في السفر. ويثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ توفي ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسقاً من شعر رهناً قوتاً لأهله. وقوله: ﴿فَإِنْ مِنْ بَعْضِكُمْ...﴾ قال الشعبي: إذا ائتمن بعضكم بعضاً فلا بأس أن لا تكتبوا، أو لا تشهدوا. وقوله ﴿وَلِيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ يعني المؤمن. وفي الحديث «على اليد ما أخذت حتى تؤديه» وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا الشَّاهِدَةَ﴾ أي لا تخفوها وتغلوها، عن ابن عباس: «شهادة الزور من أكبر الكبائر» وقوله: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءِثْمٌ قَلْبُهُ﴾ هو كقوله: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لِينَ الْآثِمِينَ﴾ [المائدة: 106].

﴿لَلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَعْلَمُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعْذِبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٥﴾﴾ .

يخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض وما فيهن وما بينهن، وأنه المطلع على ما فيهن، لا تخفى عليه الظواهر ولا السرائر والضمائر وإن دقت وخفيت، وأخبر أنه سبحانه يحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه في صدورهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ تَخْفَوْنَ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبَدُّوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [آل عمران: 29] وقال: ﴿يَعْلَمُ الْبُيُوتَ وَالْأَخْفَى﴾ [طه: 7] والآيات في ذلك كثيرة جداً، ولهذا لما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على الصحابة وخافوا منها ومن محاسبة الله على جليل الأعمال وحقيرها، وهذا من شدة إيمانهم وإيقانهم فأتوا رسول الله ﷺ، ثم جثوا على الركب، وقالوا: يا رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطبق: الصلاة والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطبقها، فقال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير» فلما أقر بها القوم، وذلت بها ألسنتهم أنزل في أثرها: ﴿ءَأَمَنَ الرَّسُولُ...﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ .

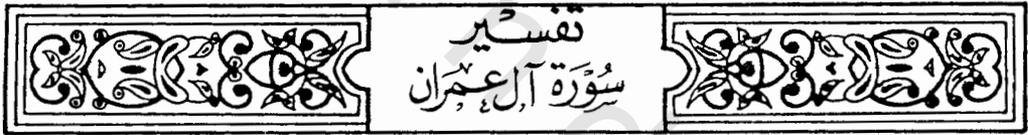
﴿ءَأَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا فُرْقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ .

﴿ءَأَمَنَ الرَّسُولُ...﴾ قال النبي ﷺ: «حق له أن يؤمن» والمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد فرد صمد، لا إله غيره ولا رب سواه، ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء، لا يفرقون بين أحد منهم، فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، بل الجميع عندهم صادقون بارون راشدون مهديون هادون إلى سبيل الخير، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله، حتى نسخ الجميع بشرع محمد ﷺ خاتم الأنبياء، المرسلين الذي تقوم الساعة على شريعته، ولا تزال طائفة من أمته ظاهرين. ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي سمعنا قولك يا ربنا وفهمناه، وقمنا به وامثلنا العمل بمقتضاه. ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ سؤال للمغفرة والرحمة والल्प. قال جبريل: إن الله أحسن الثناء عليك وعلى أمتك فسل تعطه فسأل.

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعًا إِلَّا وَسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ .

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي لا يكلف أحداً فوق طاقته، وهذا من لطفه تعالى بخلقه، ورأفته بهم، وإحسانه إليهم. وقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أي من خير. ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ أي من

شر، وذلك في الأعمال التي تدخل تحت التكليف. ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا﴾ أي إن تركنا فرضاً على جهة النسيان، أو فعلنا حراماً، كذلك، أو أخطأنا أي الصواب في العمل جهلاً منا بوجهه الشرعي. ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا﴾ أي لا تكلفنا من الأعمال الشاقة، وإن أطقناها كما شرعته للأمم الماضية قبلنا من الأغلال والأصار التي كانت عليهم، التي بعثت نبيك محمداً ﷺ بالرحمة بوضعه في شرعه الذي أرسلته به من الدين الحنيفي السهل السمح، وفي الحديث «بعثت بالحنيفية السمحة» ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ أي من التكليف والمصائب والبلاء، ولا تبتلنا بما لا قبل لنا به. ﴿وَأَعِزَّنَا﴾ أي فيما بيننا وبينك مما تعلمه من تقصيرنا وزللنا. ﴿وَأَغْفِرْ لَنَا﴾ أي فيما بيننا وبيننا وبين عبادك، فلا تظهرهم على مساوينا، وأعمالنا القبيحة. ﴿وَأَرْحَمْنَا﴾ أي فيما يستقبل، فلا توقعنا بتوفيقك في ذنب آخر، ولهذا قالوا: إن المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء: أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه، وأن يستره عن عباده، فلا يفضحه به بينهم، وأن يعصمه فلا يوقعه في نظيره. ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ أي أنت ولينا وناصرنا، وعليك توكلنا، وأنت المستعان، وعليك التكلان، ولا حول لنا ولا قوة إلا بك. ﴿فَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي الذين جحدوا دينك، وأنكروا وحدانيتك، ورسالة نبيك، وعبدوا غيرك، وأشركوا معك من عبادك، فانصرنا عليهم، واجعل لنا العاقبة عليهم في الدنيا والآخرة. وفي الحديث: «كان إذا ختم البقرة قال آمين».



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿التَّوْبَةَ﴾ .

قد تقدم الكلام عن ﴿التَّوْبَةَ﴾ في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ .

وتقدم الكلام على قوله ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ في تفسير آية الكرسي.

﴿زَلَّ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ .

يعني نزل عليك القرآن يا محمد بالحق أي لا شك فيه ولا ريب، بل هو منزل من عند الله، أنزله بعلمه، والملائكة يشهدون، وكفى بالله شهيداً ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي من الكتب المنزلة قبله من السماء على عباد الله والأنبياء، فهي تصدقه بما أخبرت به، بشرت به في قديم الزمان، وهو يصدق لأنه طابق ما أخبرت به، وبشرت من الوعد من الله بإرسال محمد ﷺ وإنزال القرآن العظيم عليه. ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ﴾ أي على موسى بن عمران. ﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾ أي على عيسى ابن مريم ﷺ.